يوميـــات سبتمـــبر

فـــوزى شلـــبى

الطبعة الأولى يناير ١٩٩٩

★ عنوان الكتاب : يوميات سبتمبر

★ المؤلف : فوزى شلبى

★ تصميم غلاف : ماجد جرافيك

★ الناشر : مصر العربية للنشر والتوزيع

١٩ ش إسلام - حمامات القبة

تليفون وفاكس : ٢٥٦٢٢٦٨

ص . ب : ٥٧٤٠ - هليوبوليس غرب - القاهرة

★ رقم الإيداع : ٩٩/٢٠٥٧

★ الترقيم الدولى : ٤-٧٩٢٦-١٩-٩٧٧

★ الطبعة الأولى : ١٩٩٩

★ لوحة الغلاف للفنان

« مصطفى مشعل »

إلى « إيزيس »

التي بعثت الروح في أشلاء

« أوزوريــس »

القســـم الأول

يوميات سبتمبر

(روايـــة)

* اللوحة .
* نزف الروح .
* عزف على وتر مقطوع .
* اليوميات .
* سبتمبر .

اللوحـــــة

... وفجأة وجدتنى فى خلوة تامة معه !

يتنقل وعلى وجهه تلك الابتسامة المطمئنة ، التى أحبها وأعشقها ، يجلس بجانبى ويزداد توترى ، أكاد أموت رعباً من تواجدى معه فى هذا المكان الذى يكتنفه الهدوء ، هذا المكان الذى لا يصدق أحد من هؤلاء المارة الذين يكتظ بهم الشارع أنه يصلح لخلوة فى هذا الوقت من النهار.

كنا فى العمل ، وكنت قد وجهت إليه نظرات مستسلمة، وكان قد نفذ إلى أعماقى حين قال :

- « ابتسامتك المرسومة على وجهك البرىء تمتزج بألم دفين ».

تلاشت الابتسامة واحتوته نظراتى العارية .

وبصوت خافت حنون أضاف :

« تخفين جرحاً عميقاً ولا تريدين أن يعرف أحد » .

أسقط كل الأشياء فى يده دفعة واحدة ، وكان أخر الموجودين فى الحجرة قد انصرف فاستطرد :

« سوف أكون بجانبك علنى أخفف عنك » .

سقط القلم من يدى المرتعشة ، تلك الرعشة التى امتدت إلى بقية جسدى ، خيل إلىّ أن يده قد امتدت تطلب كفى ، لاشك أن هذا الأمر أسعدنى وأربكنى ، أيقنت أن أعصابى قد أرهقت ، لم أع ما يدور حولى ، لحظات بلا منطق لا يحكمها حرص أو حذر ، لا يحكمها قانون خارجى من احتمال دخول أحد زملاء العمل فجأة ، الشىء الحقيقى كان ذلك الحريق الهائل بداخلى ، ذلك النبض الذى يرتجف به كل عصب فى جسدى ، لاشك فى أن كل ذرة فى جسمى كانت فى قمة نشاطها ، توشك أن تنفجر لو لم تمتد يدى أكثر ، وأكثر ، كنت فى حاجة إلى تأكيد ، ضغط على يدى ضغطة خفيفة ، فارتعشت شفتاى ، وأرسلت إلى عينيه نظرات متوسلة ، ضائعة ،

تشابكت العيون ، وتحشرج صوتى أو لعله غاب تماماً ، تمنيت أن تنطبق السماء على الأرض ويتهدم مبنى (المصلحة) أو يزول بكل ما به من مكاتب وأوراق ، أن تبتلع الأرض الزملاء ، كل الزملاء ، والأهل والزوج والأبناء ، وأجدنى وإياه وحيدين على انفراد فى مكان ما . ولم أتخيل المكان على هذا النحو ، ضوء خافت للغاية ، النوافذ جميعها مغلقة ، يتسرب منها رذاذ ضوء الضحى ، يقتحمها ضجيج الميدان ، والسوق والباعة على جانبى الطريق ، أخترقهم ، وأشعر كأن لهم ملايين العيون تخترقنى ، وأنا أسير خلفه كى أصعد مرتبكة متعثرة والدم هارب منى ، أكاد أموت رعباً من هذا الفعل ، وفى الوقت ذاته لا أتصور نفسى عائدة إلى حيث أتيت ، بعد أن أغلق علينا الباب جلست مشدودة ، السخونة تغمر يدى ، وشفتاى تتملكهما رعشة سرت فى جسدى كله ، وبعد دقائق صرت لا أخشى أن يرانى أحد .

ألحظ تماسكه الصامت فيستلبنى قول له ذكره مرتين :

- « إنى أمتلك القدرة على أن يغلق علينا باب واحد ولا أقترب منك » .

يومئذ استنكرت قائلة :

- « إن هذا مستحيل ولن يحدث » .

ها هو المستحيل قد تحقق، وأعتقد أن إرادتى بهذا الصمت تسربت تحت حشايا الكنبة ، ويحتل عقلى شىء واحد، ألا وهو الخطوة الثانية ، لكنه ما يزال كما هو ، يبدو عادياً للغاية ، يؤكد جدارته ، ثقته فيما سبق ذكره، ولكن كيف استدرجنى إلى هنا ؟ كيف تم هذا ؟ وهل استدرجنى حقيقة ؟ ! حين التقينا حسب موعدنا فى الميدان ووجدنا أن انتظارنا لموعد الأتوبيس الذى يحملنا لبلدة زميلته قد يطول ، قطع خوفى من أن يرانا بالشوارع أحد وعرض علىّ الصعود إلى هنا لحين اقتراب موعد الأتوبيس ، وبنظرة نافذة واثقة قطع ترددى وتقدمى ، وأشار فى إيجاز إلى اللوحة التى نقلها إلى مكتب صديقه قائلاً :

- « هام جداً أن نحمل معنا هدية تناسبها » .

لتلك التى أخمن وجود علاقة ما بينه وبينها ، فطلبت مرافقته لزيارتها بحجة أنها كانت قد دعتنى لحفل زفافها ولم أذهب ، تلك التى كانت تتردد عليه فى مقر عملنا ، والتى ضبطت نفسى أكثر من مرة تتخذ منها موقفاً ما ، علة ناتج عن الغيرة عليه ، ولكن هل لى الحق فى ذلك ، ومتى تسرب إلىّ هذا الشعور ، ألا يعدّ ذلك نوعاً من الخيانة ؟ خيانة ! آه من هذه الكلمة اللعينة التى تقتحم حياتى لتعكر صفوها ، خاصة فى تلك اللحظة التى طالما تمنيتها ، وأخشاها فى آن ..

ها هو يتنقل فى حرية ولا يتفوه بكلمة ، ينظر إلىّ بين الحين والحين نظرة واثقة ، وأنا مستغرقة مكانى وقد فشلت تماماً فى السيطرة على نفسى ! ، لم تعد لى قدرة على التماسك ! ، لم تعد لى إرادة ، فقدتها تماماً !! ، أنظر إلى الباب المغلق بالمفتاح من الداخل وتلك الطرقة الطويلة التى تنتهى بحجرة صديقه المحامى الذى يطل علينا من البرواز المذهب المثبت على الجدار بجوار ساعة حائط تشير إلى تمام العاشرة ، وهو مايزال يبتسم ،

ابتسامته الغامضة ، منهمكاً فى تغليف اللوحة التى رأيتها قبل زواج زميلته ، أو صديقته ! حينما أرسلها إليه أحدهم على مقر العمل الذى يجمعنى وإياه ، وكعهدى به ، راح يفتح أمامى عوالم مدهشة ، وساحرة إثر سؤالى عما تعنى اللوحة ، عجبت أن توجد بها كل هذه الأشياء التى شرحها ، والتى كنت أراها مجموعة من الخطوط والظلال والألوان المعتمة التى لا معنى لها ، ها هو المعنى يخترق وجدانى ويترسب فى قاع نفسى ، ها أنا ذا أرانى صاعدة بقوة خفية إلى هذا المنحدر الذى يغلفه الضباب ويكتنفه الغموض ، والذى يفضى إلى قمة عالية تنتهى بكوة بيضاء تسدها امرأة على وشك السقوط من علٍ ، لا يبدو لها وجه ، بل ظهرها وجسدها الذى يظلله شعر أسود يحتل مساحة كبيرة من اللوحة التى غلفها وحملها ، وأشار إلىّ أن أنهض ، وعندما أغلق الباب تقدمنى إلى الشارع ، خفيفاً ورشيقاً .

وكنت قد أدركت تحتى ، فأطرقت بصرى خجلى !.

رأيت وجه أبى فارغاً من كل تعبير ، ارتميت فوقه ، رحت أهزه ، أوقظه ، لكنه كـان بارداً ، مـيـتـاً ، وأمى تجلس قبالته ، تذرف دمعاً ما ، نظرت إليها بكل ما أحسه تجاهها ، تملكتنى حالةٌ هستيريه وأنا أنهض إليها ، جاثمة فوقها ، يدى لا تكفان عن توجيه اللكمات لها ، وهى تزيحنى وقد خلا وجهها من أى تعبير دال على فقد عزيز ، ذلك المسجى أمام ثلاثتنا ، أنا وهى وأختى البائسة ، تلك الضحية الجديدة لها ، وتلقفتنى يد ذلك الذى لا أشعر حياله بأية عاطفه ، سواء حباً أم كرهاً ، الذى قالوا لى أنه أخوك ، والذى لا أعلم متى وضعته على الحياد من مشاعرى ، أرانى مستسلمة ليده التى تسحبنى خارج الحجرة ، أردت أن أصرخ فى وجهه، وحينما لمحت الثور خلفه ارتد الصوت فى حلقى ، بقوة

انتزعت نفسى واتجهت صوب الثور ، وكأننى فى حلبة لمصارعة الثيران صرت، فى لحظة الظفر صرت ، بعنف غرست مخالبى فى وجه الثور، ورأيت الرعب فى عينيه ، وجدته يتضاءل ، يصير فأراً، والحلبة من حولنا تكتظ بالرجال ، ودهشتهم تلهب حماستى ، جميل أن يلقى الثور مصرعه أمام بنى جنسه الذى طالما اختال عليهم أمامى ، أمامى فقط ، يرى أنه أفضلهم ، وفقط وحدى باتت تعلم ، مؤخراً تعلم ، أين هو منهم ! هو الآن فأر ، الآن فى حجمه الطبيعى ، فأر ، بل أقل وأصغر شأناً ، صرصار ، يتراجع وأهجم ، أهجم ويتراجع ، أحدهم تقدم إلىّ ، أزحته عن طريقى ، صرخ الفأر ، صرخ الصرصار :

- « طالق ، طالق ، هذه المجنونة طالق » .

هدأت عاصفتى وانطفأ بركان صدرى وعدت إلى أبى المسجىّ .

يا أبى : الآن لادرب آخر لى ، هو درب واحد فقط ، ذلك الذى تقول عنه أنه درب الخزى والعار ، الذى يفضى

إلى الهاوية .

يا أبى : إبنتك الهادئة ، المنطوية ، اللينة ، لم تعد سهلة القياد ، إبنتك التى كانت دائماً وأبداً تؤثر السلامة بدافع ما أور ثتموها من أعراف وتقاليد مغلفة بغلاف حريرى أخضر تزعمون أنه الدين صارت تحتقر كل أعرافكم وتقاليدكم .

يا أبى : من اليوم لا طريق آخر لى ، بعد أن أنجبت من الأبناء ولداً وبنتين ، بعد أن أحببتهم كما لم تحب أم أبناءها ، بعد أن احتويتهم وربيتهم وأعطيتهم كل ما عندى ، بعد أن تحولت من أجلهم إلى رجل وأمراة وكل ما يريدون ، أرى أن طريقهم وطريقكم غير الطريق الآخر .

يا أبى : أنا فضولية وأود الذهاب إلى النهاية ! لقد هجر معظم الناس ذلك الطريق ، أو فى الحقيقة الكل معى فى هذه الطريق ، كل النساء ، كلهن يسرن فيه ، يسرن فيه خفية ، وأنا وحدى التى سوف تسير فيه علانية .

يا أبى : رفضت منذ البداية أن أدخل هذا الدرب من

البـاب الخلفى ، رفـضت أن أكـون لأثنين فى آن واحـد ، تسألنى : منذ متى ؟! لا بأس ! أنت الآن فى وضع يحتم المصـارحـة ، منذ تيـقنت من أن كـيـانى كله بات للآخـر ، بعـد صـراع مـرير ، بعـد عـذاب دام شـهـوراً ، ليـل نهـار ، حسـمت الأمـر ، وقد أدركت أننى لم أعد للثـور ، قلتـهـا له، قلت أكثر من مرة :

- « هذا البيت لم يعد بيتى » .

وصرخت أيضاً :

- «وأنت لم تعد زوجى » .

لماذا أنت صامت هكذا يا أبى ؟! .

لمَ لم تسـألنى عـن رد الفـعـل ، أعلـم أنك كنت تـعـلم أنه اعـتـاد أن يضـربنى ، ويمطرنى بأحط الألفـاظ ، كـان يفعل هذا حتى أمامك ، بل كان لا يحلو له أن يفعل هذا إلا أمامك ، لكنى لم أكتف بالقول ، أنت وأمى والناس جميعاً تعلمون أننى لم أكتف بالقول ، تركت له بيتـه ، وأتيت إلى هنا ، فى كل مـرة ترغـمـوننى على العـودة ، أعود إلى أولادى فقـط ، صحيـح أن أنفـه تم كســره ،

وركع لأول مـــــرة تحت قـــدمى ، إلا أن هذا ضــــاعف إصرارى، رغم ما تتلوكون به عن الناس والبيت والأولاد والفضيحة التى يهدد بها ، ظل يردد كل شئ لكنه - الحقير - لم يقل أننى التى أكدت له كل الأشياء ، بدأت بالتلميح ، وتجاوزته إلى التصريح ، ضربنى .. هاء ، وقال :فاجرة . . هاء . . هاء ، عاهرة . . هاء . . هاء .. هاء ، سعدت بالاتهام الذى يعنى حريتى ، فالرجل أى رجل لا يمكن أن يقبل الارتباط بفاجرة ، عاهرة ، وقبل هو ، حكمتم جميعاً أن أظل معه ، قبل حتى لا يخسر الشقه ، قلت لكم : لا أريد منه شيئاً ، قال : هى حاضنة ، قلت : يمكننى التنازل عن حضانة أولادى حتى لا أنشطر نصفين ، قلتم : سوف تصبحين ناشزاً ، قلت ليكن ما يكون فالمهم أن لا أكون غير ما أريد .

يا أبى : أصدقنى بحق ما أنت فيه الآن ! .

لماذا أنت صـــامت هكذا ؟ لماذا لم ترد علىّ ؟ ألا توافقنى على أنه فقد رجولته ، وفقد أى معنى لها ؟

أعلم أنك توافقنى ولكنك لا تريد أن تنطق بها ، ولكنى أود الذهاب إلى النهاية! نهاية الدرب ؟! الدرب المهجور تحت ضوء الشمس، الذى لم تمش فيه إمرأة وهو مضاء ، كلهن يمشين فيه فى الخفاء ، ذلك الدرب الذى تقولون عنه أنه يقود إلى الجحيم ويؤدى إلى ساحة تعرض بها رؤوس الموتى مثل بطيخ أحمر ، فلم تعد تمر إحداهن من هناك ، لكنه درب جميل ، تلجأ إليه من حين إلى آخر هاربة من جحيمكم ، أعلم أنك رغم طيبة وجهك ستقيم زمناً فى الجحيم ، لأنك أسلمت نفسك كلية لها ، لأنك كنت ضعيفاً جداً جداً أمامها ، كنت رجلاً فقط لحظة غلق الباب عليكما ، ألم تكن هذه هى نقطة ضعفك التى تعلمها أمى ، هى بجبروتها تحيل الرجولة إلى نقطة ضعف وتطوعها ، وأنا بضعفى وخنوعى صرت لا أملك أن أحيل نقطة ضعف الثور إلى ما يرد اعتبارى ويعلو بى على مهانتى، حتى بعد أن اكتشفت ذلك ، بعد ما يقرب من خمسة عشر عاماً ، وضعت يدى على نقطة ضعفه، ولم أستغلها ، حتى حينما ألمحت أمى بذلك

للمحامى ، الذى لجأت إليه كى أتخلص من مأزق إنذار الطاعة ، خجلت من توضيح الأمر للمحامى ، لو كان بينى وبينها عمار لكنت صارحتها منذ زمن طويل ، كثيراً ما كنت أبغى ذلك ، وددت أن أفاتحها فى أمر الصوت الذى اسمعه صادراً عنها وأنت معها ؛ قبيل زواجى !! وكان يطيب لى أنا الخجولة يا أبى أن استمع إلى هذه الحكايات من زميلاتى فى العمل ، كنت أموت شوقاً ورغبة فى معرفة هذا الأمر ، جميعهن يصدرن هذا الصوت ما عداى يا أبى ! ، استقر فى روعى ويقينى بأنى شاذة عنهن ، بل ومريضة أيضاً ، قلت أن تحمله لى ولمرضى تضحيه كبرى ، تحملت سنوات جلها إهانات وصفعات وركلات ، سنوات حرمان يا أبى ، ساعدته بضعفى أن يصدق أكذوبته ، كنت أعود بعد كل مرة يطردنى إثر علقة ، أعود وأتحمل الوحدة والبرودة فى شقته ، تلك التى لم أعد أشعر أنها بيت لى ، حتى بعد أن انتفخت بطنى مرة ومرتين وثلاث ، أترانى أنا قض نفسى ؟!، لا !! فأنت تعلم ، كما علمت أنا مؤخراً ،

مؤخراً جداً ، بعد أن تعارفت على الآخر ، أن مسألة الإنجاب شئ والصوت ذو الألم المكتوم شئ آخر ؟ .

يا أبى : هل أفصح أكثر ؟! .

لا ، لا داعى أن أطيل فترة إقامتك فى الجحيم بالحديث عن هذا الصوت ؟! أنا ابنتك ، وأنت معهم وقبلهم وبعدهم مسئولاً عنى ، وأنا على يقين الآن أنك ستدفع ثمن معاصيك ، وثمن إعادتى إلى بيت الثور ، مرة بعد مرة ، خاصة بعد أن صرت كلية للآخر ، من أجل هذا ستحمل بعضاً من وزرى ، ومن المرجح أن أمى ستظل فى الجحيم طويلاً ، طويلاً ، هى مصدر آثامى ، وآثامك ؟! لكنى سأعيش من اليوم ، هذا مكتوب ومقدر ، مقدر أن تموت أنت يوم مولدى أنا ؟! ألم تسمعه وهو يصرخ بها : « أنت أيتها المجنونة طالق ، طالق ، طالق » .

هذه الكلمة البسيطة هى حياتى الجديدة ؟! هى شهادة ميلادى !! ميلاد ؟ أى ميلاد ؟! يالى من ساذجة بلهاء ، لقد نطق بها قبل هذه المرة مرتين ، فى الأولى

توهمت أننى نلت الخلاص ثم وجدتنى فى دوامة المحاكم وقسم البوليس والعودة، تكرر ذلك فى المرة الثانية ، وتوهمت كما أتوهم الآن أننى نلت الخلاص؟ فهل يحلو لى دائماً أن أحيا بالوهم . يبدو أن الوهم الذى يتيح لى الإحساس بالسعادة هو أفضل عندى من أية حقيقة !! فهل ما يربطنى بالآخر هو وهم جديد ؟ .

أهو وهم جديد ؟ أهو وهم يا أبى ؟!

لا تقلها ، أرجوك ، لا تقلها ...

كالعادة وجدتنى فى استجابة لنظراتها ودعواتها التى لم ينل منها الوهن ، فلم أدر كيف وصلت إلى بيت أمها وأنا غائب وبليد ، ودونما مراعاة لأمها الكسيحة ، وبلا شفقة أو رحمة ، سحبتنى إلى الدور العلوى حيث شقة الشقيق المسافر! ، ما أن دخلت حتى جذبتنى مؤنبة ، متنمرة ، ثم هامسة بتلك الهمسات التى كانت تؤجج فىّ النار ، ورغم نهمها إلا أننى لم أكن كما كنت دائماً معها .

★ ★ ★

وتجسدت الأخرى ! .

بعبقها الأسطورى تجسدت ، بسلطان دلالها ونفوذ رقتها عبرت كل الحواجز لتهيمن على المكان المغلق ، فتتلاشى غريمتها ، أخذتنى منها ، ومن نفسى ، حملتنى

طائرة ، محلقة، صرت فى قطيعة مع العالم ، أو على الأقل مع هذه ! .

وجدت الهواء يداعب وجنتّى ، وانسابت على وجهى دمعة فرح بسبب الجو النادى ، أحسست أننى أسترجع رشاقة فطرية ، وهى تطير أمامى ، وأنا أحلق معها فى بهاء الليل، بين الحقول والأشجار ، فى طريق لا نهاية له، مفروش بضوء القمر الذى يتسلل عبر الأوراق وينسكب على الأرض ، رأيت جسدى يتحرر من نفسه كأن خيوطاً عديدة تنحل تدريجيا ، أحس أن عضلاتى تتخلص من صلابتها ، فلم يعد يجثم على صدرى شىء ثقيل .

صرت أتنفس أعمق من ذى قبل ، إلى أعلى أصعد ، فى أوراق الشجر أتمرغ ، بندى الليل أغتسل ، بشعاع القمر أتطهر وهى أمامى تدور ، تقترب منى وتدور ، تقترب أكثر ، وتدور حتى باتت على وشك السقوط ، أشعر بها ، أصارع رغبة قوية فى أن أقفز إليها ، آخذها بين ذراعى ، أحملها ، أربت على

وجنتيها ، تسند رأسها على صدرى ، أضمها الىّ ، أو حتى أقبّلها .. .

لكنى لم أفعل ! .

فقط أشرت إليها هامساً أن تلوذ بجذع شجرة وهى تستجيب منومة ، تفتح ذراعيها وتحتضن الشجرة ، تحتويها ، تمتزج بها تماما ، تماما .

★★★

أدركت بأننى شردت ، وأننى لست معها ، فأمطرتنى بوابل من التأنيب والتبكيت تارة ، واستدرار العطف تارة ، وكنت أستند إلى أريكة لا مبالٍ بإفتراشها الفراش ، وتلونت بالعزف على نقطة ضعفى الدائمة ، تعزف على وتر إحساسى بالذنب تجاه ضياعها ، ورغبتها يضج بها جسدها لكنها بفعل جمودى تتجمد شيئاً فشيئاً .

بهدوء وروية رحت أحدثها عن بيتها ، أولادها ، العمر ، الناس ، وأمها التى تصطلى ناراً فى هذه اللحظات لكونها تعلم – وفى كل مرة تعلم – أن فوق

رأسها يدور هذا الشيء الذى لا تملك له دفعاً أو رداً إلا أن تميد الأرض وتبتلعها ! .

وعندما هبت فى وجهى أمسكت بيدها ، ألقيتها على الفراش ، وأدرت ظهرى ! .

★★★

ولم تصدق أمها أن أفعل هذا ، وأترك المكان - على غير العادة - بمثل هذه السرعة ، واستقبلتنى فى موقعها الذى كانت تتنصت منه علينا بنظرة يختلط فيها الذهول بالفرح ، أو حتى التشفى فى ابنتها .

★ **السبت :**

. . منذ أيام إلتـقـينا ، وكـانت حـواجـز كـثـيـرة قـد أزيلت من بيننا .

واليــوم نلتــقى لأول مــرة . . ولدقــائق مــعــدودات أمضيناها معاً . . كانت حواجز أخرى قد أزيلت من بيننا فوق ما كان قد أزيل من قبل .

لست أدرى بالضـبط مـا يحـدث بخلجـات نفـسى ، ومـا هو سيـاق الحـــديث الذى يبدأ ولا يعـرف نهـاية ؟ ، ولا كـيـفـيــة وصـوله بنا إلى أن نرسم جـانبـاً كـامـلاً من الحيـاة يمكن أن نمضيـه مـعـاً ؟ ، يدعـوه اســتــرسـالى وحديثى عن الطبيـعـة بكل مـا فـيـهـا إلى الإنصـــات ، ويدعـونى حـديثـه إلى عـقـد لسـانى دهشـة ، فـمـتـى تكف

أحلامنا عن السريان على طرف لسان الآخر منا ؟ ..! ..!

عند اللقاء الأول ، فى ومضة كان قد اباح لى ببعض الأسرار الخاصة جداً ، كان يجب أن يستغرق هذا بعض الوقت، واتفقنا فى اليوم ذاته على أنه لا يجب أن نفسد هذا الإحساس الساحر بالتفكير أو التقنين ، مسلمين بأن هناك ما ربط بيننا منذ الوهلة الأولى ، وكأنه أمر مفروغ منه ، ولم تعترنى أية خشية ..

لعله كان ظمآن أشد الظمأ إلى الحب الذى كان يقرأ عنه، ويستمع إليه فى كل مكان ، وحياته خالية تماماً منه ، كان معى يريد الاستمتاع بنشوة الاعتراف به ، ولم أجد أية صعوبة فى استنتاج ذلك .

وقد استقر فى نفسى شعور بالتوافق مع الذات لأول مرة ، منذ زمن ، بين الصورة وما تعكسه ، بين الجسد وظله ، بين حلم كان يملأ ليالى وحدتى وقصة أشعر أننى أعيشها بفضول وفرح ، كنت مثل طفلة ترتحل للمرة الأولى ، كانت تلك البداية مثيرة ، مثيرة بالنسبة لوتيرة حياتى ، ولست أدرى كيف أبحت له بسهولة بأننى أود

نسيان هذا المكان الذى جئت منه ؟ ، وطريقة حياتى ! ، وأتحرر من الأشياء جميعاً ! ، الزوج ، الأولاد ، وأعيش تحت نظام مبادىء جديدة تفرضها مشاعر اللحظة ، وأول مبدأ هو النسيان .

ولمّا تواجدنا مع البعض من أصدقائه كنت عاجزة عن التمييز بين الأحلام والرؤى ؛ فالبحر ، زهوره ، وطيوره، كان يثير خيالى ، ويدغدغ حواسى ، ومداركى ، وظللت بينهم كغادة خارجة لتوها من قمقم ، ولم أنتبه إلى أن الهواء يعبث بثيابى ، ويعرى جسدى أمامهم ، إلا عندما دار حولى ، ثم اقترب منى - كما لو كنا متعارفين منذ زمن طويل - وهمس فى أذنى، فمررت بيدى على ثوبى وجلست ممتنة ، راضخة فى إذعان تام لإحساسه نحوى! ، خشيت أن يسمع دقات قلبى ، وانسلخنا من الأصدقاء ، وانفردنا ثانية لاستئناف ذلك الحديث الخاص جداً .

ورحت من جديد أتحدث بطلاقة وعذوبة ،دون

التمييز بين الواقعي والخيالي ، نسيت تماماً مكان وجودي ، وما أفعله ، وبصحبة من أعيش تلك اللحظات، ولكني في الوقت نفسه لم أنس أنه ملفوف في ثنايا هذا جميعه .

وفي الليل كانت النشوة نجماً متوهجاً تدب في الأعماق كضياء الفجر ، وارتعاشات قلبي على وجه القمر حين يلامس أعماق البحر .

★ الأحـــــد :

أنا وأنت نتوق للحظة عذراء .. لحلم وليد .. يمتد في فجر البراءة ، قبل أن تدق أجراس الرحيل ؟ .. ! .. !

وجدتني سعيدة في تلك الليلة الجميلة من سبتمبر ، اعترت جسدي قشعريرة سريعة ، كانت تهب علينا من الحقول نفحات من الياسمين وشجر الورد البري ، كنت أستنشق الهواء بعمق ، أسير غير حافلة بالطريق المفتوحة، سعيدة سعادة خاصة جداً لكوني عبرت به أزمة طاحنة ..

كان في حالة لم أره عليها من قبل ، من جراء تعرضه لأزمة مع صديق حدثني عنه بحب شديد ، وكان اليوم منذ بدايته يشي بهذه العواقب ، وكنا لأول مرة نلتقي على موعد ، نضع في الحسبان وجود الآخرين بيننا ، كنت قد وطنت نفسي على رؤيته في استقبالي ، ولمّا لم أجده أستبد بي القلق .

حينما حضر حاولت إخفاء اضطرابي ، كانت الأزمة

قد   أت بينه وبين صديقه ، حاول جاهداً إخفاء الأمر عنى ، إلى أن أخبرنى أخيراً بالأمر ، لحظة أن قرر الرحيل، وأخذت على عاتقى أن يصفو الجو مهما كلفنى الأمر ، وأحسست لأول مرة أنه فى حاجة حقيقية إلىّ ، وبالرغم من المحاذير العديدة انطلقت معه .

رويداً . . رويداً . . عاد إلى طبيعته ، صافياً ، رقيقاً ، وكم كانت دهشتى عظيمة عندما أحسست أننى أسترجع رشاقة فطرية ، أشعر كأنّنى ليلة مجنونة كأمواج البحر ؛ فأنصهر كذوبان الجليد ، كأن جسدى يتحرر من نفسه، كأنما خيالاً وخيوطاً عديدة تنحل تدريجياً ، أشعر أن عضلاتى تتخلص من صلابتها ، فصرت أنطلق معه، ولم يعد يجثم على صدرى ذلك الشىء الثقيل ، صرت أتنفس أعمق من ذى قبل ، انطلق معه أكثر ، وأكثر ، رحت أدور ، وأدور ، تَمنيت أن أتمرغ فى أوراق الشجر ، وأحسست كأنى فراشة ، تمنيت لو كان يشعر بى ، وبدا لى أنه يصارع رغبة قوية فى أن ينهض ، يأخذنى بين ذراعيه ، أسند رأسى على صدره ، يضمنى إليه ! ،

يحـملني ، يربت على وجنتيّ ، ثم يقـبلني ، لكنه لم يفعل، فقط طلب مني أن ألوذ بجذع شجرة .

وعند الرحيل كانت نقطة سوداء رقيقة كرؤوس الدبابيس تغزو إحساسي الواسع بالنشوة والسعادة .

★ **الاثنين :**

اللعنة كل اللعنة على سبتمبر ، تلك الفترة التى يتقلب فيها الجو بين الدفء نهاراً ولسعة البرودة ليلاً ، وتتقلب فيه الأمزجة كذلك !!

كان لقاؤنا فى التاسعة صباحاً ، وصلت قبله بدقائق، أشحت بيدى إليه وهو على الكوبرى ، رد علىّ من بعد ، استقبلته مشرقة ، ومد يده حول خاصرتى وقبلنى ، واكتسى وجهه بنشوة غامرة .

كان اليوم مشمساً وكأنه من أيام الربيع ، اهتزت شجرتنا ، وتأكدت ألوان أوراقها ، وكنت قد بدأت ألقى مصاعب فى النوم .

لأول مرة يحدث لى أن أقضى الجزء الأكبر من الليل وأنا أتفاوض معه من أجل قسط من الراحة ، ولم أكن أعرف تلك الراحة إلا عند طلوع الفجر ، بيد أنى بت بلا مرفأ أرسو إليه ، بات ذهنى مزدحماً بالكثير من الأسئلة؟! والأشياء التى لابد من فعلها أو فسخها ؛ فلم

أكن محررة تماماً .

يطوى الصمت أعناق حياتى ، وفجأة ابتهج القلب الحزين حين عثرت على شريط « نيروز » الذى تذكرته حينما قال لى رداً على ما يمكن أن يأخذه منى : روحك .

إنها الأغنيات التى تعبر عن تلك الأحاسيس التى تتنازعنى : « بعت لك يا حبيب الروح ، بعت لك روحى، وقلت لك مكان ما تروح خد معاك روحى » . نقلت له الأغنية بالهاتف، كنت خجلة ، وكنت أراه على الطرف الآخر فى نشوة بالغة ، رغم البعاد يتم التواصل ، وهو يضيق به ، فى البداية استوقفنى هذا بعض الشىء ، إلى أن تبين لى أنه ينشد التواصل التام الذى لا يقطعه وجود الآخرين حول الهاتف فى عمله .

طلب منى برقة أن نستمع إلى هذه الأغنيات معاً، وتلاقينا ، ودار بيننا حوار طويل بدأ بالفن والسياسة وانتهى بالأشياء جميعاً !

كنت مدعوة لسفر يحول بيننا يوم عيد ميلادى ، فاحتفلنا به قبل موعده ، وللمرة الثانية أحس بأننى فى

تطيعة مع العالم ، أو على الأقل مع ماضيّ الشخصى، إقتلعت كل شىء ، عشت الساعات والدقائق سعيدة ، أرتشف حقا معنى السعادة ، رحت أعيش اللحظة معه حسب إمكانياتها ، أقتلع قدر استطاعتى الجذور والأقنعة ، ظلت البهجة تملأ قلبى ، أردد على مسامعه بين الحين والحين أغنيات « فيروز » التى تتكفل بنقل أحاسيسى دون مواربة أو خجل ، وكثيراً ما كان يستبد به الصمت ، الذى يحل كى يمنع الأسئلة العديدة من الانطلاق ، ويمنعنا من التفكير فيها مخافة الإجابة عليها ، أو على أحدها ؛ فأشعر أنه يبحث عن كلمات مناسبة لكى يرد على ، أو يبلغنى أمراً ذا شأن .

كنت أتلصص عليه ، وهو ينظر إلىّ نظرة أفهم أنها تنقل كل شىء بداخله ، وتنقلنى بدورها إلى لحظة أخشى عواقبها ، فألوذ بالمداعبة ! .

وانتقل بنا الحديث إلى علاقة تورط فيها ، علاقة تؤلمه !.

ناشدت الخلاص التام له ، لى ، بدا كما المذنب الذى

ينشد التربة بين يدى أحد الكهنة ، وتوقفت طويلاً أمام أمر تقديم نفسه بالمخجل ، ومالا يطاق ، ويبدو أن هذا الأمر الشاذ نال منى !، أو أنه ساهم فى تشكيل الرباط القوى الذى بات يجمعنا ، وبعد فترة لاحظت أنه يستمع إلىّ أكثر مما يتكلم ، فأحاديثنا فى الواقع كانت تتحول إلى موسيقى لا تهم مفرداتها كثيراً ، فيتكلم الواحد منا ليخرج أصواتاً حنونة منغمة ، يرد بها على أصوات أخرى صاعدة من حنجرة عزيزة .

وكلما بدأ يفضى إلىّ بجانب آخر من حياته ، أجدنى أنصت فى ترقب تام . وقد حدثنى كثيراً عن والده ، ولم يحدثنى عن والدته قط ! ، وصعقت عندما أفضى بإحساسه الحقيقى نحوها ،وأنها خارج أحاسيسه، وأنه لا يستطيع أن يقول أنه يحبها ، وأنها حتى لا تستثير شفقته ! ، وأنتقل إلىّ شعوره بالخجل المحزن ، أو الغضب الصامت .

تساءلت : « كيف لا تدخل أمه فى الحسبان ؟! » . أردت أن أرد عليه بكلمات بعيدة عن نطاق الفلسفة

والتبرير .

التزمت الصمت بفعل رغبته فى احتضانه ، ضمه بالحنان الذى يفتقده إلى صدرى ، كطفل يتيم .

رفعت رأسى فرأيت دموعاً تنسكب على وجهه ، كان يبكى فى صمت وعيناه مفتوحتان ، وظلت دموعه تواصل انسكابها على وجنتيه ، دموع حقيقية ، آتية من بعيد .

إحترت ثانية فيما يجب أن أفعل أمام استسلامه لذلك الطفح الذى لم يكن بمقدوره أن يوقفه ، ولا أن يتحكم فيه ، تمنيت لو كنا معا بعيداً عن المارة ، إمتدت يدى إلى يده الباردة، عاد قسراً وطلب الرحيل .

إنها محاولة مستميتة - منى - لأن تصبح لإرادتى القدرة على العمل فى حياتى هذه الأيام . إرادتى ؟! أم إرادة قلبى ؟! أم كلاهما ؟ سؤال بات يحيرنى ؟! ..

لأجل ذلك التنازع قطعت ذلك الخيط المشدود بيننا ، الذى كنا نتلاقى على نقاط محدودة فيه ، فلا نترك نقطة إلا وقد تواعدنا على أن نلتقى عند نقطة أخرى ، وعند اللقاء تكون الراحة والسكينة والاسترخاء ، وما بين اللقاء واللقاء يكون التوتر ، الشد ، التفكير ، وغالباً ما يكون الإنتظار ، وتمضى العلاقة من خيط مشدود بيننا إلى وتر مشدود بداخلى ، فاللعنة كل اللعنة على هذا الخيط الواهى الذى لا يزال ممدوداً على نقطة من لحظة استرخاء ، تظهر ما بعدها أكثر شداً مما كان عليه قبلها ، يجعل عمق الشد بدوره لحظة الاسترخاء بعده أكثر قدرة على جلب الراحة .

ومنذ أيام بترت عن عمد ساعات اللقاء التى تبدأ

ولا تعرف نهاية ، وافترقنا - لأول مرد - فى ضوء النهار ، بعد سويعات بالمقارنة بزمن اللقاءات السابقة ، فى محاولة منى لأن تصبح لإرادتى القدرة على العمل حالما أكون معه ، فى محاولة أيضا لقطع ذلك الخيط قبل أن يدفعنى للحظة استرخاء أرفض بعدها العودة إلى الشد ، فأركن إليه ، وأخلخل حياتى ، أو أن يدفعنى لمرحلة توتر أعظم ! ، لا أقوى على تحملها فأتحطم !، وأغوص فى بئر عميقة .

قطعت ذلك الخيط بيننا بكل ما بقى لى من إرادة قبل أن أفقدها إلى الأبد ، تطعته وانتظرت أن أعود لسابق عهدى ، لكن هيهات !، ليس بهذه السهولة بعد أن أصبح وجودى كله متضمناً فى الانتظار ؟ .. !

مزقت الخيط أو بالتحديد أوهمت نفسى أنه تمزق ، وبكيت عليه طويلاً ، وجلست مع نفسى أعيد ترتيب أوراقى كلها ، وأهدافى ، بل وأعيد توجيه وجدانى ! ، حاولت جاهدة أن أوجه وجدانى لبيتى وعملى ، كما خططت من قبل ، ووضعت قدمَى على البداية ، وقطعت

شوطاً ليس هينا فى الطريق .

صممت أن أقطع كل أمل لى فى إقامة علاقة متكاملة مع إنسان أصطفيه ، أذكّر نفسى بكل ما مضى، بكل سعيى الدائب لتحقيق هذا الهدف بالذات ، وبدرجات الفشل المتفاوتة فى تحقيقه ، أحاول أن أقنع نفسى بالاكتفاء من الرجال بزوج كفء ، ومن الزوج برجل ! .

أحاول أن أقنع نفسى بهذه الأفكار التى قد يصل اختلافها عن عقائدى فى الحياة إلى حد التناقض ، ولكنى كنت أحاول ، وتستعصى علىّ نفسى ، وأتمزق بين ما ينبغى أن أقتنع به - بناء على تجارب واقعية - وما تربى عليه وجدانى .

أحاول أن أصل إلى قناعة بهذه الأفكار ، لأنى أعلم أنى من النوع الذى لابد له من مجموعة أفكار يسير على هديها ، ومن هدف واضح متبلور حوله وجدانه كله كى يسعى إليه .

قطعت الخيط ، أو خيل إلىّ أنه أوشك على ذلك

حين التقينا بعد عودتى .

نجحت - لأول مرة - فى أن أجعل من هدف اللقاء غاية ! وكان الهدف هو رؤيتى لصديق سوف يعرفنى به، وعلى مدار يومين متعاقبين نجحت حقاً فى أن أنفذ ذلك، وكنوع من هدهدة المرء لنفسه ، حين يفتقد من يحنو عليه ويهدهده ، رضيت أن أناقش مع نفسى فكرة العودة فى القرار ! ، وظلت المسلمة الأولى فى هذا المشروع هو الانهيار التام لأى إرادة لى !! ، ورضيت مؤقتاً لإرادتى الانهيار .

كان من الممكن أن لا أتراجع فى القرار كلية ، أن لا أحطم كل قواعد المنطق العقلى ، وأنا على يقين من أنه لن يصدنى ، رغم عذابه ، فقط سيحاول أن يأخذ بيدى إلى شاطىء أمان ، مسايرة للعقل ، لعقلى أنا وحدى ، ولكنى لست وحدى ، سيغرق هو معى ، ولأنى لا أرضى لنفسى ، ولا له الغرق ، فقد تمسكت بتنفيذ القرار ، الذى لم ينفذ بعد .

★ الأربعاء :

القلب أم العقل أم اللامبالاة ؟! .

يحملني الحنين دوماً إليه ، وألقى على صدره صفحات من الأماني . وقبل لقياه كان القلب قد أصبح قاسياً حقاً ، والقدر اليسير من العلاقات الإنسانية كنت أحتفظ به كإحتياطي ، وكان العقل يمنعني ، قبل أي شيء ، لكوني أنتمي إلى طبقة يحكمها البروتوكول والشكليات،والأنماط،العقل وحده منعني من الاستمرار !! أما اللامبالاة فلا تعطي شيئاً ، وتعطي كل شيء .

لم أكن على موعد معه ، ولم أتوقع رؤيته ، هُيئ إليّ أننا قد افترقنا ، ونحن في مفترق الطرق ، وكنت قد عزمت ألا أترك نفسي منساقة لهذا التيه ، بطريقة غير مباشرة نقلت إليه قراري، وكنت أعلم أنه سوف يتألم، ولكن سرعان ما نسيت كل شيء حينما أبصرته أمامي،

غـادرت المكان قـبله بلحظات خـشـيـة أن ينصـرف ! ، وانتظرته على رصيف الشـارع !، وانتظرت أن يفصح ، يلومنى ، أو يعنفنى ، لكن بصـره كـان يزوغ كـالعـادة ، كـان ينحرف إلى جهة أخرى وكنت أدقق فى ملامحه . وبدا لى كـالصبى الذى يحـاول الإمسـاك بفـراشـة ، أنه يقترب فى حذر مبالغ فيه مخافة أن يأتى بحركة غير مقدرة ومحسوبة ، تجعلها ترف بجناحيها وتطير .

بيد أن هذه المغامرة تحتوى على كل مقومات الروعة، وجدتنى لم أعد أخشى مـا كنت أخشـاه ، أو بالأحرى تجاهلته تماماً ، وانسلخت عن عـالمى ، كنت غارقة فى أزمة إنتقالية ، صرت أتخبط فى عنفى الخاص ، مع نيتى الراسخة فى عدم الخنوع !! ، والخروج من ذلك بطريقة أو بأخرى . وبدلاً من الخروج وجدتنى ألج بسرعة فى الباب المفتوح على مصراعيه !.

استقبلنا محرابنا الذى بات رائعاً ، أكثر روعة من ذى قبل !، وأطلت الليلة الخريفية معتدلة ، وجدت

السماء تروق لى خاصة بعد أن باتت مرصعة بالنجوم ، التى أجهدت عينى فى تتبعها ، أفصحت له عن رغبتى فى الاسترخاء التام ، قال : « أغمضى عينيك » . ولم يعد يتفوه بكلمة واحدة ! ، تسمرت ، ذابت كافة الحدود بين جسدى والحجارة التى تحمله ، وهو ممدد أمامه فى حرية كاملة ، كان على بعد قليل يرمقنى بحب ، إنتظرت لحظة، نظرت ثانية إلى السماء ؛ فوجدتها تصطبغ بألوان عجيبة ، وأغمضت عينى، وفجأة أحسست بحرارة شديدة .

قهر تردده السابق ، طوى الصراع الذى عصف به طويلاً فى المرات التى كنت أترك نفسى للطبيعة ، وأحرر جسدى من كافة القيود أمامه ! ،وبدون أدنى تحفظ ! ، وأكاد أسمع الأصوات التى تعصف به ، وتعتمل بداخله، وها هى يده تقترب لأول مرة وهى ترتجف ، رجفة خفيفة كتلك التى بدأت تسرى فى جسدى ، كأننى مشدودة بقوة خفية ، تركت أنامله تعزف على أوتار شعرى بحرية كاملة ، دفنت رأسى فى الجهة الأخرى ، لم يتفوه بعد

بتلك الكلمات التي توقظ الوجدان وتلهب كل الحواس ، ثم انتقلت الأنامل الجسورة لتعبر منبت الشعر ، أرخيت جفوني المشدودة . عزفت الأنامل لحناً أكثر حرارة ، استقرت بحنان على وجنتي ، كانتا ساخنتين ، وكنت مندهشة لأناقة حركة الأنامل ولطفها ، وعندما انتقلت إلى شفتيّ لم يعد بمقدوري أن أقاوم هذا السيل المتدفق في انسيابٍ دافئ .

تعجبت لابتعاده فجأة ، وأحسست بالبرد ، ثم انتقلنا صامتين إلى المكان الأكثر دفئاً ، وكانت النجوم تبدو لنا من خلف زجاج السيارة أكثر روعة ، واختلطت الأضواء بموج النيل الرقراق كاللؤلؤ على البعد الفاصل بيننا وبين الشاطىء ، ولفنا الصمت ، والتنهدات ، ثم استكانت يدي في كفه لأول مرة ، تناول أطراف أصابعي. لم يكن في البداية يضغط عليها ، بدأ بالمداعبة ، مداعبة أشرقت معها على وجهه ابتسامة قصيرة براقة ، كنت أوقن أن المتعة العارمة للرجل - أي رجل - تكمن في الداخل الدافىء للمرأة - أية إمرأة -

ولكننى فى هذه اللحظات لم أشعر بشئ من ذلك القبيل، يمكننى أن أجزم أنه لم ينشده !، خوفاً أو خجلاً!.

كان يتشمم رائحتى ، ويبتعد قليلاً ، ويرقبنى ، وكنت أخشى من أنه إذا لمسنى كاملة سيفقد السيطرة على نفسه ؛ كما سبق وفقدت السيطرة على نفسى منذ لحظات ، ومرتين فى الأيام الماضية ، ولكن خانتنى فراستى ، عجبت لهذا القدر من تماسكه ، بيد أنه يسيطر على نفسه بالإبتعاد عن التفكير فىّ كأنثى ، وأنه حقيقة ينشد الروح ، أو يتوق لنشوة أخرى، تسمو فوق غرائز البشر ، نشوة لم توجد بعد ، غير نشوة الخلق الأولى ، نشوة لائذة بسر آخر من أسرار الحياة ، وأذعنت للقوانين الأبدية .

وبدا لى ثانية ، أنه ليس فى حاجة إلى اختراق الأسوار، ليس خوفاً أو خجلاً كما أزعم ، بل تطلعاً للرغبة التى يخلقها الإمتاع المطلق .

لما ضمنى لأول مرة إلى صدره أحسست بوجنتى

تلتهبان حمرة، كنت خجلة ، وكان قد أصبح أكثر حرية ، يمطرنى بقبلات كالجمرات تلسعنى ، لسعات تعبر الجلد وتسرى إلى الداخل ، مصحوبة بارتعاشات رقيقة ممتعة للغاية ، وكنت أقاوم لقاء الشفاه وأتعجله فى آن ! ، «أحبك! » . ، همس بها فى أذنى ، والتقت الشفاه فى قبلة الظمأ الأولى . وبدأ جسدى يتجمع حوله من شتات ، ويستسلم ببطء لخدر رقيق .

★ **الخميس:**

سبحت ضد تيارى .. عدت إلى التوتر الذى بات ينزعنى من أى شئ ، النوم القلق ، الإستيقاظ فى جوف الليل ، عدم القدرة على العودة إلى النوم إلا مع إشراقة الصباح الأولى ، الصداع الرهيب الذى لا تذهبه المسكنات ولا أقداح الشاى ، ولا أى عدد من أقداح القهوة ، سمة هذه العلاقة أنها ولدت قوية منذ اللحظة الأولى ، أقوى من قدرتى على انتزاع نفسى وانفلاتى من مجالها . . وما عادت لى ثقة فى إرادتى .

الحل : إرادته هو ، أصبحت عنصراً ، جامحاً ، مشوشاً ، بعد التطور الرهيب ، صرت مبلبلة ، متناقضة فى انفعالاتى . كان الذعر يمتزج طيلة الفترة الماضية ببهجة غريبة .

لقد انقطع شىء ما فى التوازن القائم فى صلب علاقتنا ، التى كنا نأمل أن ننأى بها عن هذا المنحنى ، كنت أدرك فى قرارة نفسى منذ البداية أنها علاقة غريبة،

لكنهـا صـريحـة وجـادة للغـاية ، ومـوسـومـة بـوعـود الزمن ولبـاقـة المشـاعـر التى كـانت مـا تزال غـيـر مـحدودة بعد ، كـان ذلك بعـيـداً عن صواعق عـاطفـيـة مفـاجئـة وهوجاء ، لقد كانت أعـمق من الصداقة ، ربما بقيت مـتلعـثمـة ، ولا تزال بعـد فى طفولة التـعبيـر ، كـان بوسعى أن أظل على التـصريح الأول بـالأمنيـة التى تتـلخص فى التـخلص من كل شىء ، والتحرر التام . أن أدع ستاراً سمـيكاً ينسدل على كل الأشياء ، يلثمها !!.

كنت أناضل فى صـمـت ، ريثـمـا أخـرج نـهـائيـا من تلك المتاهة ، كنت أصارع بقايا الشعـور بالذنب ، وطأة الأعـراف ، والتـقـاليـد ، والأسـرة ، وأتجـاهل الإحـسـاس الثـقـيـل بالعـراقـة والأصـالة ؟ ! ، والأشـيـاء التى تهـدد بالظهور ثانيـة ، كما لو أنها تريد توريطى ، تلطيخى ، خيانتى ، تدمير البقية البـاقيـة التى كنت أحاول الحفاظ عليها من كياني، ولكنى اليوم يجب أن أتخلص من كل هذه الأشيـاء ، أدعها استثناءً ، ليس شفقة من إجهاض حلم ظل يراودنا طيلة الفتـرة الماضـيـة لقضـاء رحلة معـاً

خارج القطر ، بل لأننى فى حاجة ماسة وحقيقية كى أنسى عذاباتى الطارئة ! .

واليوم بدأ الحوار بيننا متجاهلاً ذلك الذى حدث وكأن شيئا لم يكن ، سرعان ما عادت إلى نفسى الحالة التى كانت تعترينى حالما أكون كاملة له ، أغفو ، أحلم ، أغنى .

بدا الكون تغمره نسمات عطرية ، تشعل صمت ورود وجنتى ، وتراقص دمعة استراحت على خدى ؛ حملتها غصون ندية إلى وجهى .

كانت السماء زرقاء ، وحمراء ، وبنفسجية ، وكانت الشمس تتهادى على جناح المغيب ، أفصحت له ثانية عن رغبتى فى النزهة بقارب ، وقد طلبت منه ذلك من قبل ؛ فقطع تردده ونهض ، وحينما تهادى بنا القارب رغم تمرد الهواء والموج ، وصار من اليسير ترويضه إلى حد ما ، تركت نفسى له ، كان الهواء يعبر أسوار ردائى من أسفل إلى أعلى ، وتسللت يده كالعادة إلى شعرى وجلة خائفة. وسرت فى جسدى من جديد تلك القشعريرة

المتعة ، تدغدغ حواسى ، وأطبقت شفتاه على شفتىّ
حتى سرى فى خدر تام . أحلم . سعيدة ، مجنونة ،
مهيأة ، جديدة تماما . كأننى أخطو الخطوات الأولى
لإمرأة حرة ، بعد طول قيد ، كانت الحرية بمثل بساطة
المشى صباحاً ، التخلص من كافة القيود الحريرية المكبلة
ليدى مثل (الجوانتى) الشفاف ، دون مساءلة النفس ،
وأحسست بجسدى وهو يتزود بغرائز جديدة ، كنت متعبة
حين حملنى ، ووضعنى على ركبتيه ، مشدودة
ومندهشة، وغائبة، يضمنى إلى صدره ويقبلنى ويحتوينى
، فأحتضنه بمتعة صافية ، وتنداح مشاعرى فياضة ،
وأحس أننى أتخطى حدود الزمن خارج الزمن ، فى تخوم
الحلم ، وجسدى كله يرتجف ، يختلج ، ثم يهتز تلك
الهزات التى تصاحب بدايات الخلق الأولى المصحوبة
بالمتعة والبهجة ، وضربات قلبى قوية ، وأجدنى
أتنفس بطريقة غير منتظمة مثل الضرب على أوتار
ناعسة .

لم يعد جسدى قبراً ، أو واديا بارداً ، صار روضاً

عطراً، لم يعد صورة مسطحة ، مقفرة ، خربة ، تحتكرها المظاهر والأقنعة الزائفة . ظلت الحقائق تختلط بالأوهام، والأوهام تتجسد على هيئة حقائق وأنا مضطربة ، سعيدة، كل مرادى أن يتوقف العالم عن المسير ، وأنا أقضى ساعات وساعات ، وأحيا تلك الدوامة الهادئة التى تدغدغ وعيى وأعصابى ، وترفعنى فى آن إلى مرتبة الملائكة .

أخذ يحلق ، يهيم بالحياة ، لم يعد هناك وقت كى أفكر وأعى ، فى هذه اللحظات انفرجت شفتاى بإبتسامة رقيقة ، وسرعان ما وجدت ابتسامته قد غاصت داخله !. وبدا لى جليا أن الزمن ما نحن عليه ، إلى أن اكتشفت فجأة أن الساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل ، فعدت من جديد إلى ترقب حلول المأساة، أو الاستسلام التام للعبة اللامبالاة ! .

★ الجمعة :

بعد أن هدهدت نفسى كثيراً ، بعد أن جلدت أهدابى ثانية ! ، بعد أن حاولت إعادة توجيه وجدانى بدأت التنفيذ .

بدأت التنفيذ ، ضعيفاً ، ضعيفاً ، وأنا أرى سحابة سوداء من الأفكار تظللنى ، وجسدى أكواماً مبعثرةً، كان قراراً ليس فيه من إلالتزام سوى محادثة هاتفية ، وطيلة الأيام الماضية لم تحدث ! حاولت أن أتخلص من مشاعرى تجاه هذا التيه ، ونجحت فى التواجد ببيتى ، وممارسة عادة القراءة ، وكنت لا أريد أن أقسو على نفسى أكثر مما فعلت ، ولكنى فى النهاية حاولت ؛ فمن الطبيعى أن أرى الأفق بدونه كأشباح ، وحياتى مهترئة وممزقة ، ورضيت بهذا القدر ، وكنت أدرك أنه مع الاستمرارية ستكون الفعالية .

والتقيت به !

أو بمعنى أدق فوجئت به أمـامى ، وتذكـرت بعظيم الامتنان والتقدير قانون الاحتمالات الذى يقضى بحتمية إلتقائنا فى هذا المكان بالذات ، قانون الاحتمالات الذى كنت قد نسيته أثناء عملية البتر الحاد التى أجريتها لحياتى طيلة الأيام السابقة على هذا اللقاء ..

وقضينا فى محرابنا بعض الوقت فى حركات لا تستقر ، أقف أنا ، أتمشى ، ينتقل هو من السلالم إلى الحجارة ولا يبتسم ، وأنا أتأمل المسلة ، والنخيل ، والأشجار ، أنظر إلى سكون الأوراق حزينة ، شاردة ، يبدأ نقاشنا حول موضوع ثم ينتهى ! ، وأحياناً يفلت الزمام ويلمح الواحد منا نظرة ذات معنى فى عين الآخر فلا يجرؤ على مواجهتها ، تقارب الوجهان ثم انزويا ، إرتعشا ، ابتسما ، وارتسمت على شفتىّ صورٌ ، وضحكت طويلاًمن عنائى فى توجيه وجدانى طيلة الأيام الماضية ، وانفجرت بالضحك من كل تلك العمليات الفكرية والنفسية المعقدة التى أجريتها لحياتى لألتزم فى النهاية خطاً محدداً لا أحيد عنه ، فما جدوى هذا كله

وقانون الاحتمالات قائم !

الوجه أعرفه ، ظل محفوراً بقسماتى ، لست أدرى كيف رأيتُ فى وجوده هنا على مدار ثلاثة أيام دون أن أعلم ، ودون أن يتصل بى ، جرحاً لمشاعرى ، رغم أنه بذلك يقهر ما بداخله .

لينفذ قرارى أنا ! .

★ **اليوم الثامن :**

أدفع عـمـرى ثمناً كى أجنبك هذا الإحسـاس ، قـال (الإحساس) ولم يقل (العذاب) كى يحتفظ لى بقشرة التماسك التى أتواجد بها معه فى لحظة يكون الانهيار التام هو الملجأ الوحيد للهروب من الضغط النفسى، وكنتيجة له فى آن واحدٍ .

بعد هذه اللحظة ، وهذه العبارة عدت إلى بيتى ! ، بيتى كما يحلو أن أكون إلى حد ما !! وأيضا كى يعود هو إلى حياته كما يجب أن تكون !! .

وليس معنى (بيتى) و (حياته) أننا صرنا متباعدين، لا ، قد يكون من المحتم علينا أن نسير فى حياتين مختلفتين ولكننا أبداً لن نصير متباعدين ، على الأقل من زاويتى الخاصة.

وبحق هذا الذى بدأ بيننا كالطوفان أننى ما رفضته من قلبى ، حتى أستشعره فى دمى ! رفضته حبيباً ، فاستشعرته جزءاً حيوياً من ذاتى ، دائما كنت رافضة

لمرحلة معينة ، ولسبب ما ؟!. أظن بها أن مد الطوفان قد انقطع ، فتكون المفاجأة أننى معه فى قلب مرحلة أخرى أكثر تقدماً من سابقتها !!

مارست الانطلاق معه خارج حيز الزمان والمكان ، وإلى حد ما الأعراف أيضا ! ، وتحققت إمكانية امتزاج ذاتين ، لا يمكن أن يدرك المرء أيهما يَمنح ومن يُمنح !! ، فقط كلاهما يرتشف معنى السعادة .

وها أنا ذى ألقاه تحت مسلتنا القصيرة التى تبدو يتيمة على حافة الحديقة ذات الأزهار والنخيل السامق والبرج العالى ! ، تلك المسلة التى بقيت وحيدة ! وغريبة جداً !! فوق تلك السلالم ، ووسط ذلك المكان ...

أردت أن أقول له ذلك ولم استطع ! .

جلست ويدى تظلل عينى من الشمس التى صبغت أشعتها الغاربة صفحة النهر بالضوء القزحى ، وهو صامت ، يستأنف الصمت بنظرة ساهمة ، وأنا أتابعه مع الأمواج والأشجار والأزهار فى دهشة وحيرة .

سحبت سيجارة وأشعلتها ، ونفثت عدة أنفاس وهو

يرقبنى ! ثم طلبت منه أن يكملها ؛ فلم ينتبه ! ، أشحت بيدى فوق عينيه : هوه ! هوووه ! فيما تفكر ؟ ! أجب؟ أجب وبسرعة ؟! أطرق ولم يستجب للمداعبة ، حدثته عن هديته لى ، وأنى ما إن تركته بعد منتصف الليل حتى فتحتها ، وأنها قد أعجبتنى ، وأنى فكرت أن أرتديها ... ولم يعلق ! .

اقتربت ، التصقت ، صرت على صدره ، وارتجفت يده، خيل إلىّ أنه يحملها فوق طاقتها لترتفع ثم تستقر على خصلات شعرى وفوق كتفى ، وظلت ترتجف حتى بعد أن استقرت ! متى سيدرك أن شغفى به خرج عن إرادتى ؟! ، أصبح شغفى كالنار العنيدة الموقدة فى نفسى التى كلما حاولت أن أخمدها بمانع أو حائل أتت عليه ؛ بل زادتها الموانع والحوائل اشتعالاً ؛ فكل ما أحسه تجاهه كان لا يدور إلا بينى وبين نفسى ، يدور رغماً عنى ، كان من المستحيل أن يؤثر فى أية علاقة أخرى له ، أو لى ! ؛ فليكن زوجاً أو أرملاً ، أو عربيداً!، ولأكن أنا زوجة ، أو أماً ، أو ما أكون ؛ فلا ضير من أن

أحيا معه ، أسعد به ، وأن ألقاه دائماً فى محرابنا ، بعيداً عن العالم ، كل العالم ! .

لكنه ما يزال صامتاً ، أو مأت برأسى لأعلى ، ونهضت ، امتدت يدى إليه ، فى تراخ نهض وكفى فى كفه الباردة ، صعدت به فاتراً !، دُرت حول السيارة وفتحتها ، إتكأت برأسى على عجلة القيادة ، وهو يستوى على مقعده ثقيلاً ، إبتسمت وأنا أعيد المقعد إلى الوراء بزاوية منفرجة ! ، واضّجعت !! ، تعثر فى معالجة مقعده وهو يقلدنى ! ، فضحكت بصوت عال .

امتدت يده إلى مفتاح المحطات وراح يعبث فى الراديو !، أدرت المحرك ولم أنطلق ! ، أزعجنى أن يعبر الموسيقى والأغنيات إلى أنباء (عاصفة الصحراء) التى فصلته نهائياً عنى ! .

وساد صمت ثقيل الوطأة ، وكانت الشمس برتقالية متجمدة تمضى لحظة المغيب تحت سحب داكنة ، ثم هبت ريح خفيفة جمعت أوراق الأشجار الصفراء الساقطة على الأرض فى مجرى واحد مستطيل راح يندفع سريعاً ويصنع فى النهاية دوامة تصعد لأعلى ثم ترجع للأرض .

سبتمبر

أول شعور نبت بداخلى تجاه الآخر شئ شبيه بالإزدراء أو لعله الحقد ، إزدراء لمَ ؟ وحقد لماذا ؟ لا أدرى ؟! ، هل لأنه يختال بشبابه ويهتم بأناقته ؟! أم أنه ذلك الحاجز الذى أوجده بيننا وبينه ! حتى رئيسنا فى العمل بت أشعر أنه غير قادر على تحجيمه ، وأشعر أيضا أنه ضئيل بجانبه، هادئاً هو ، أو يتصنع الهدوء فيما يخص العمل ، يأتى صباحاً ، قبل الجميع ، يجدنى قد بدأت عملى ، يلقى التحية ، بالكاد أسمعه ، يدفن وجهه فى جريدة الصباح ، وعندما أنتهى من قيد المكاتبات الواردة وأضع الملف أمامه ، أجده لا يرى ، لا يشعر ، أحياناً فى غياب الرئيس يعطى لنفسه الحق فى تصريف الأمور ، أو بالتحديد البعض منها ، لأنه لا يقترب من تلك التى تعرِّضه لحرج إذا ما أشَّر بالرأى عليها ، يترك الملف بعض الوقت ، دائماً هكذا ، ثم

يبدأ! ، أرى فى ذلك نوعاً من الكبر والغرور ، وبعد فترة تأكدت أنه يعمد التأخير لحين التأكد من عدم حضور الريس ، انتقل إلى العمل معنا مع بداية الخريف ، بالتحديد فى النصف الثانى من سبتمبر قبل خمسة أعوام ، وكان من الممكن أن تقوم القيامة قبل أن تربطنى علاقة ما بأى رجل ! .

هل تحدثت فى أمر هذا مع تلك التى تجاورنى ؟ أم هى التى تحدثت بشأنه فى البداية معى ؟ أزعم أنها هى التى فاتحتنى ، رغم أنها تتبع إدارة أخرى ! ، وتقوم بعمل لا يمتد لطبيعة عملنا بصلة ، إلا أنه طبعها الذى يفرض عليها التدخل فى شئون الآخرين !، تقول : « إننا أسرة واحده ، ولابد أن نظل هكذا ما دامت تجمعنا حجرة واحدة » . وسرعان ما أرانى - رغماً عنى - أفضفض لها عما يكدرنى ، ولا علم لى بقدرتها على إستنطاقى والبوح لها بأدق تفاصيل حياتى ، حتى اللحظات الخاصة بينى وبين زوجى ، التى يجمعنا فيها الفراش على فترات متباعدة ! ، صارت على بينة من أمرها ، ومن عذابى فيها ! ، يومياً ، أتناول فطورى معها ومع

زميلها الذى يبدو جلياً أن هناك شيئا ما يربطهما ، لم أفكر يوماً فى معرفة كنه هذا الشيء الخاص جداً ! ، الذى يدور فى شئ كالحلم ، وليس الهمس فقط ، رغم صوتها العالى جداً فى الحديث العادى ، أو الحديث الذى يخص شئون حياتى ! أسمع التعليقات والإشارات من خلف ظهرهما ولا أبالى ، هاهى لا تكف عن معرفة أى شيء عن زميلنا الغامض ، ولا تصدق أننى لا أعلم عنه شيئاً على الإطلاق ! ، تنعتنى بالخيبة ، وتضحك ، وهو لا ينتهى من الجريدة ، ولا يبدأ فطوره إلا بعد انتهاء فطورنا ، أنا وهى وزميلها ، لا يتحدث مع أى منا ، ولا يتحدث فى شئون العمل إلا فى وجود رئيسنا ، أو زميل رابع لنا ، زميل يبدو أنه يستريح إليه ، وهو بدوره يتجاوب معه ، ولا يرد عليه باقتضاب كما هو الحال معنا ! ، بمرور الأيام وجدتنى مشدودة للتنصت عليهما ، إلى هذه الأشياء التى تدهشنى ، التى أراها جديدة عليَّ تماماً ، أرى كلامه منطقيا حين يمتد الجدل بينه وبين زميلنا الذى يسلم فى النهاية برأيه ، هل لهذا جميعه هو

بعيد عنا وعن أحاديثنا ومشكلاتنا حتى ؟! : « إن أشياء كثيرة تحدث فى العالم دون أن ندرى عنها شيئاً!، إن هناك أناس يموتون وآخرون يولدون ، ونحن لا ندرى أى لحظات حياتنا أكثرها سعادة ؟ وأيها أكثر شقاءً؟ » تتردد أصداء هذه العبارات التى أسمعها منه وتنفذ إلى أعماقى ، ثم أسعدنى كثيراً أنه بدأ يرد على أسئلتى ، ينظر إلىّ بإبتسامة لعلها تلك الابتسامة التى شجعتنى على أن يطول الحديث معه حول أشياء لا تنتهى ، قال : «إن أسوأ شىء هو غريزة التملك ، وأنه لولاها لأصبح الناس جميعاً سعداء ، ولما اعتدى أحد على الآخر وجاء ليستولى على ما يملكه ، ولما دافع الآخر عن الشىء الذى يملكه ، وربما اختفت الحروب ، وتلاشى التقسيم السياسى فى العالم » . بمرور الوقت راح يجوب بى أعماق بحار ومحيطات ، تكشف أمامى خبايا المجهول عن السياسة والمستوطنات الاسرائيلية وهدنة (كامب ديفيد) التى يتوهم البعض أنها سلام ! ، فسر لى كيف بدأت ولماذا انتهت؟ حدوته « شركات توظيف الأموال »

التى تكفلت بهد حيل أمى ! لدرجة صرت معها أرثى لحالها ، وأشفق عليها بعد أن تسلل (الروماتيزم) إلى جسدها والمياه إلى عينيها ، بهرنى عندما تكلم عن الخصخصة والمؤسسات العابرة للقارات! لكنى لم أفهم الربط بين هذا وحديثه عن أسطورة آخر الحروب والترويج لمقولة : «إننا حاربنا من أجل (فلسطين) أربعة حروب! ». بت أفهم أننا حاربنا من أجل أنفسنا أيضاً ، من أجل الخطر الصهيونى/الغربى الذى يتهددنا !! ، ثم استوقفنى كثيراً شرحه لعدم دستورية حياتنا فى ظل قانون الطوارىء الذى بدأ التجديد له على استحياء فى أعقاب اغتيال الزعيم المؤمن ! ، ثم بات عرْضاً مستمراً وسمة من سمات هذا العهد ، الأمر الذى يضفى عدم الشرعية على أية إنتخابات محلية أو تشريعية ، لكنه لم يحدثنى عن نفسه أو بيته ، حتى بعدما استغرقته مشاكلى مع زوجى ، الذى يكره أسرتى وبقية أهلى ، لاشك أنى أفلحت فى جذب إنتباهه ، وبقيت واثقة أنه سيفهم تماماً ما أعنيه ولن يسىء الظن بى ، أمّا لو حدث

وفهمنى على نحو آخر فإنىّ أعرف كيف أوقفه عند حده!، رحت أردد هذا لنفسى كثيراً ، كثيراً ، فى طريق ذهابى إلى العمل وعودتى ، حتى فى فراشى صرت أحمل إليه عالمى الجديد .

لا أدرى متى تطورت بى الأمور حتى أصبحت هكذا : « ليست الفراشة وحدها هى التى تحوم حول النار فتحرقها ، إنك تجد نفسك مندفعا نحو هذا الذى تحذر منه أو تخشاه بقوة مجهولة أكبر وأقوى من أية مقاومة يجندها العقل » . متى سمعت أو قرأت هذه العبارة ؟! أظن أننى سمعتها منه ! ، أو من أبى ! ، يطيب لى دائماً أن تنسب هذه الكلمات إلى أبى ! ، ربما قالها قبل أن يتوارى ! ، والآن لا أريد الوقوف أمامها ، أريد أن أتعلق بشىء آخر ؟! ذلك الدرب المقفر الذى على جداره نمت أعشاب شيطانية ، وعلى مواضع قليلة منه توجد رسوم وخربشات ، وأقوال غريبة لا أفهمها ، أو أنا فى الحقيقة لا أريد أن أفهمها ! ، فى ذلك الدرب المقبض الذى يفضى بى إلى أبى ، وجهاً لوجه ، لم أرفع بصرى

إلى السماء ، فقط رحت أتهجى الكلمات التى ينطقها دون أن أتكلم معه ؛ كما راح يحرك شفتيه ، وأقرأ أنا بصوت غير مسموع !؛ أقرأ تحذيراً دائماً بالعودة ، وتأكيده على مخاطر الطريق الجديد الذى أسير فيه ، ذلك الطريق المسدود ؛ والدى النحيف ذو الوجه الطيب لم يعرف أن كل الطرق مسدودة ! ، لا خيار لى الآن !، لا خيار يا أبى ! ، وقناعتى أن أمضى فى هذا الطريق تكفل لى الحياة ولو لعدة أيام ! .

كدت أطير فرحة حينما قبل دعوتى للزيارة ، استقبلت زوجته ومعها طفلها بترحاب ، دهشت عندما تركها بعد قليل فى بيتى وانصرف لارتباطه بموعد هام على حد تعبيره ! ، فى البداية استقبلهم الثور بفتور ، وبعد قليل تغير موقفه ، وأخذ يستبقيه بشدة ، رد عليه: « سوف أحاول العودة مسرعاً » . سبق أن رأيتها قبل هذه المرة حينما أتت إليه فى العمل ، أنا التى أوحيت له بالزيارة كى أتعارف عليها ، لماذا لا تدوم بيننا الصلة الإجتماعية ، وجدتها صغيرة مثله ، هادئة أيضاً ، فى

عينيها دهشة الأطفال وبراءتهم ، ووجهها صبوح بلا ماكياج ، وشعرها بنى منسدل على كتفيها كأسلاك النحاس ، ولها عينان سوداوان واسعتان فيهما بريق وألفة ، ترتدى بلوزة حريرية من البنفسج ، وجيبة سمراء فضفاضة ، أحببتها وتمنيت أن نظل أصدقاء ، لا يهم فارق السن الذى بيننا ، هو وغيره يقولون أننى أبدو أصغر من سنى الحقيقى ، ها أنا ذى بت أرى هذا الرأى، بل لأول مرة أجدنى حريصة على أن أبدو كذلك ، ما المانع أن يصبح بيتى بيته ، وبيته بيتى ؟! يأتى إلىّ فى أية لحظة ، أو حتى أذهب إليه فى أى وقت ! ينام الجميع ويبقى هو ، يحدثنى عن كل الأشياء ! ، وأحدثه!!، أشكو إليه ، يشكو لى ، أو لا داعى أن يشكو لى ، لا أعتقد أن فى حياته شكوى ما ، سعيد بحياته وزوجه وطفله ، يتحدث دائماً بحب عنها وعن أهلها ، علاقته بهم مثالية ، غير علاقة الثور بأهلى ! ، سوف أطرح هذا كله جانباً ، وأتحدث معه عن الحب ! ، من المؤكد أنه سوف يحدثنى كأحسن ما يكون الحديث ،

أدلف إلى فـــراشى ، يجلس على الأريكة فى الركن القريب ، ينهض ليقترب منى ، يقترب أكثر وأكثر ، أتقلب على جنبى ، أتحسس فراشى ، أرى الصمت يملأ الغرفة ، ولا شئ سوى الضوء الخافت ، أعاود السير فى الطريق المنحدر ، أصعد وأنزل بين الصخور ، أقطع المسافات ، وهو بعيد ، وأنا أتعرى ، بعد أيام قليلة رأيت أنى أتعرى مرة ثانية، بعد مسافة أخرى وجدتنى أتعرى مرة ثالثة ، أتقدم تحت ضوء الشمس وقد تعريت تماماً ، أرفع رأسى فيطير غطاؤه ، ذلك الغطاء الذى ارتضيته مؤخراً كيما يغطى المشيب، يطير الغطاء وينحل شعرى ، أنتزع ذراعى وأعدو بقدمىَّ العاريتين ، وكلما خطوت أرى جسدى يمتد، طاوية من الأرض أذرعاً جديدة، وعندما وصلت إلى المنبع اغتسلت ، وراح الماء يقطر من جسدى ورأسى ، قطرات كبيرة ، أسير فى الطريق ، كل الرجال ينظرون لى ، زميلاتى يضاحكننى، يحكين لى - كما لو صرن يعلمن أن هذا يعذبنى - عن الصوت ذى الألم الممتع ! ، أرمق الثور بنظرة تحمل كل مقت العالم ،

حاولت أن أقول له حين عودتى إلى شقتـه مكرهة شيئاً ما ، أو أفعل فعلاً ما ، لكنى لم أجد أى شئ أقوله ، لا أعرف ما الذى جعلنى أعود ثانية إلى هذه الشقة ؟! هل هم الأولاد كما يتشدق الجميع ؟! ، وكما تتشدق أمى كى تخرسنى ؛ وحتى يخرس العالم من حولى ؛ الأولاد ؟! أين هم منى ؟ ، أعنى أين هم من إحساسى بهم ، استقبلونى بنظرات ميتة ، هل سبق أن أحسست بالذنب تجاههم ؟ ، بيد أن الإحساس اللعين غادرنى هو الآخر ، لم أعر ذلك الولد الكبير أدنى التفاته حينما لقيته خارج البيت ، أطرق برأسه وأنا أحتويه بآلية ! ، وتركنى للبنت الكبرى التى ضقت بلهفتها ! ، أما الصغيرة التى باتت تعذبنى فقد حملتها كى أتوارى بها ، وأنا أخطو داخل الشقة التى بعثت فى نفسى ذلك الإحساس المقبض الذى يتولانى دائماً ، ما إن وصلت حجرة النوم حتى تركتنى إليه ، كما تتركنى منذ فترة طويلة لتنام فى حضنه ، لقد نجحت فى الاعتراض على إنذار الطاعة ، كسب محامّى الجولة بسهولة حينما أثبت

فى محضر الشرطة ، وبالتقارير الطبية الاعتداء علىّ
بالضرب ! ، كيف ذهبت إلى القسم كى أحرر المحضر ؟،
كيف انتقلت إلى المستشفى ؟! لا أدرى ؟! ، كل هذه
الأحداث التى عشتها أريد أن أنساها ولا أنساها ! ،
ليتنى ما لجأت إلى رفع قضية النفقة ؟! أمى التى
أشارت بذلك ؛ بل هى التى طلبت من المحامى هذا ! ؛
قلت لها وللمحامى : « أنا لا أريد نفقة منه ، لا أريد
أى شئ على الإطلاق ! ، فقط أريد الخلاص !! » . شقت
صدرها وقالت : «إنه العار، يقولون إنك تبغين الطلاق
من أجل زميلك فى العمل ! ، باتت فضيحتنا على
ألسنة من يساوى ومن لا يساوى بعد أن ذهبت إليك
زوجته وفعلت بك ما فعلته أمام الجميع » . يقولون
أيضاً : « إنك ظللت أمامها صامتة تماماً ، هى الصغيرة
أصبحت فى نظر الناس أكبر منك لأنها دافعت عن بيتها
وزوجها بطلب خروجك من حياته ، كل هذا ولا ترجعين
عما فى رأسك » . صرخت فيها قائلة : «لن أعود » !.
ثم وافقت بالصمت - أو اللامبالاة - على قضية النفقة

كى أخرسهـا !، وليتنى ما فعلت ؟! حينما حكمت المحكمة بالنفقة أتى إلينا راكعاً ، وكرهته كما لم أكره أحداً من قبل ، ولم أطق أن يقترب منى معتذراً ، وقلت: « إننى عـائدة ! » . وعـدت بعـد أن أيقنت أن الآخـر لا يمانع فى عودتى ، كنت لحظتها أريد أن أصفعه ، نعم هو الذى أعـادنى إلى الجحيم بالتخلى عنى ، لا أدرى لماذا لم أصفعه ورحت أرجوه أن يبقى معى!، قائلة : « سوف أعـود شـريطة أن تظل مـعى ، تأتى إلىّ ؛ فـالثـور يعلم أننى لك !! » . هل عـدت لهـذا السـبب وحـده ! ، لا أظن!، أظن أننى عدت لأن أبى قد مات .

البـراح أو الزمن ، أو كلاهمـا معـاً ، فى لوحـة ملؤها الهـواء العـاصف ، هواء يكاد يخـفى خطوطاً ذات ألوان مـقـبـضـة ؛ فـتـتـشكل تعـرجـات صُلبـة ، لا تنال منهـا الأمـواج الهـادرة التى تحـملنى إلى الماضى ثم تعـيـدنى فـأظل لسـاعـات أتقلب ، يتـحـرر جـسـدى من الغـطاء ، ينحسـر الثوب عن فخذى ، تمتـد يدى بفـعل تلقـائى إلى طرف الثـوب ، ببطء تسـحـبـه إلى أعلى ، يتكوم فـوق

صـدرى ، ثقـيـلاً ، يخطر لى أن أتخلص منه ، تصطدم عـيناى بصـورة أمى التى تتـأرجح فى الضـوء الخـافت ، أرنو إليـهـا حتى يتشـوش بصرى ولا يبـقى فى رأسى أثر لها ، وحينما تتقطع خيوط الصمت أدرك أن أبى قد عاد من العمل ليلاً ، منهكاً ونحيلاً ، تمتلئ الردهة بالزفرات، يقـتـرب من حـجـرتى ، يفـتح بـابى ، أظل سـاكنة حـتى يحكم الغطاء على جسـدى كله ، يقبلنى كأننى طفلة ما أزال ، ودائمـا تراودنى نفسى أن ألقاه يقظة ، أستبقيـه فى حـجـرتى حـتى لا يخـرج إليـهـا فـيـتـعكر دمـه ؛ لمـا تسـتـولى على مـا فى جـيـبـه ، وقع خطواته فى الصـالة يرتبط باضطراب صـدرى الذى يهـدأ قليـلاً لحظة وصـوله الحمام ، قطرات المياه تعزف نغماً رتيباً ، يأتينى صوتها مـغـمـغـمـاً ، بصعـوبة تتجـمع أشلاء الحروف التى أنسج منهـا كلمـات وعبـارات مـتـهرّئة ، ساخطة ، تحاصـر أخى الأكبـر الذى ينفلت منها دومـاً ، كى تبتـلعه تلك الزوجة التى تكرهها أمى ، وصوت أبى يتلاشى بعد انطفاء نور الصـالة ؛ فـأرفس الغطاء وأترك العنان لجـسـدى ! ،

وعندما أتخيل الصوت الذى يعبر عن الألم المكتوم
أوقن أن أبى ، وأخى ، كلاهما فى حالة استلاب ،
أتقلب محمومة حتى حافة السرير ، أعتصر الوسادة إلى
أن يتقلص جسدى !، فى الصباح أنهض دون أن أبرح
حجرتى ، أظل كسْلى ، أحب هذه الحالة من الكسل
والعزلة حيث لم يكن بينى وبين أى أحد حساب ، ودائماً
أرانى عاجزة عن مقاومة الذكريات المضطربة ، كلها
مصطبغة بنفس اللون ، لون الحبر الأسود ، ترافقها
أصوات وصرخات فى موكب أرانى فيه طفلة ليس على
الشاكلة التى صنعنى بها هؤلاء وأولئك ، فى القبو
المظلم كانت تحفظ المؤن ، وعدة أبى : شكائر أسمنت
فارغة مملوءة بعدة النجارة ، هذه الحجرة التى لا نافذة
لها ، التى تشبه القبو المعتم البارد ، تسيطر عليها
الفئران ، ويسودها الخوف ؛ احتجزتنى فيها ذات مرة ! ،
لم أعد أذكر السبب ، لكنى أذكر أن أبى أخرجنى ،
وعنفها ، نزع عنها صفة الأمومة وهو يرتجف منها ، أو
من أجلى ، وأخذت أرتجف من الخوف والبرد ، حتى

أتخلص من هذه الذكرى ، استدعيت الأشياء التى لا أحبها دفعة واحدة! ، استدعيتها وصنعت منها ملامح جديدة لأمي وللآخرين ، استثنيت شقيقتي ، سحبتها برفق ، أجلستها بجوار أبى ، ولما رأيت فى نظرات شقيقى الأكبر شيئاً أقرب إلى التوسل ؛ تركته كما هو! ، بجانب أمي وأخي الأصغر ، ذلك الذى أحب تدينه وأكره تزمته ، وشيعت بصرى إلى الطابق العلوى ، أنزلت تلك التى ترقد على ظهرها طيلة الليل ، التى لا تترك لها أمى سوى جسد الأكبر ؛ فلا تتركه بدورها ! ، أشرت لهم جميعا بالدخول إلى القبو المعتم البارد ، أوصدت بابه جيداً وقد وضعت له خوصة من الحديد ، وقفلاً كبيراً ، ثم رششته بالنفط ! ، واشعلت النار ! ، اضطررت إلى استئناف هذه العملية مرات عديدة من جراء الرطوبة والبرد اللذين يطفئان ألسنة اللهب ، والنار تدور حولهم دون أن تطولهم ، متحدين ، ينتظرون نهاية اللعبة دون حراك ، وهى بجسدها الثقيل تأمر وتنهى كعادتها ، وعندما انطفأت النار توسَطَتْ الجميع ، أشارت إلى هذا

الذى أراه لأول مـرة أن يتـقـدم نحـوى ! ، تولانى رعب
وفزع وهو يقترب ، خلته يقترب ليكتم أنفاسى ، ولأنى
لا أعـرفـه اسـتـبـعـدت الهـاجس ، رغم أنه بينهم ، خـرج
مـعهم، نجـا مـثلهم ، طويلاً ، عـريضـاً كـثور ، فى وجهـه
ملاحة ، فى عينيه شئ ، عله أى شئ إلا الطيبه .

عندما خرجت إلى العمل انحسر عـالمى فى القطار ،
أركبه فيحملنى بين صور جديدة تتوالى ، صور تتوالى
لتصرفنى عن زميلاتى اللاتى يتحدثن فى كل شئ ،
استمع إليهن مرغمة ، ولا أشاركهن إلا بطيف الابتسام،
ولما يعـود القطار ، أخـمن وجـوده على رصـيف المحطة ؛
فأهرب من الأبواب الخلفيـة ، ودائماً ما تلقّانى مقطبة ،
أدير ظهرى وألوذ داخل وحدتى ! ، أتخفف من جميع
مـلابسى ، أضع رأسى وجـسـدى على الفـراش ، ولا
أستريح من طنين الرأس إلا إذا وضعت الوسادة فوقها ،
وأنا مستلقية على وجهى وبطنى ، أشيع خيوط خيالى
إليهم جميعاً ، أربطهم بها ، وأضع الثور فى المقدمة ،
أسكب عليه نفطاً كثيراً ، أوصد الباب وأضرم النار ،

تتصاعد ألسنة اللهب ، أرى الدخان يسود البيت ، يتملكنى استرخاء غريب ، أنام دون أن أحلم ، أتوهم أن أمى سوف تطرق بابى لتجلس على سريرى ، تمد يدها نحوى ، تحتوينى فى صدرها العريض ، أود أن أشدها إلىّ ، أشد نفسى إليها ، أمسك بوجهها وأقرب عينيها من وجهى ، أختفى فى صدرها ، ولا يتجاوز هذا كله أمر التمنى ؛ فأظل بعيدة عنها ، وتظل هى تتجاهلنى ، لا عن قصد ؛ ففى حياتها بقيت النقود كل شئ ، ما تبقى حولها رماد طائر ، وبقيت علاقتى بها متوترة ، منذ أن وعيتها ، فى جرمها ، وصوتها الجاف ، وصدامها الدائم مع أبى ، تضع القرش فوق القرش بحجة تعليم أخى الأكبر ، ذلك الذى راح يطرد من المدرسة إلى أن خرج لرفقة أبى ، وبعد فترة بات صورة كربونية منه ، وعندما زوجته باتت الصورة طبق الأصل ! ، وها هى بيدها الغليظة ترفعنى إلى المطبخ ؛ ثم إلى الصالة المكتظة بغرباء لا أعرف منهم سوى الثور ، يرمقنى وأنا أحمل كوباً حرصت هى على تقديمه من الشربات الوردى

المسكر، فى ذهول ألوذ بحـــضن أبى الذى يربت على كتفى ! ، أفصح بكلمات مُهمشة عن استنكارى ، يدير رأسـه حـتى لا أرى دمـوع عـينيـه إثر أمـرها القـاطع : «إذهبى سيكون زوجك ! .» ويبقى أبى كما هو ، عالمه الضيق لا يتسع لشئ سوى العمل ، يخيل إلىّ أنه سوف يأتينى ذات مساء وفى يده شاكوش ومنشار وأخشاب ومسامير ، وهى لا تمهله لحظة ، تأخذ كل ما فى جيبه، يتجهم وجهه لكنه لم يقل شيئاً ، تتوقف الصرخات فى حلقى ، تنكب نظراتى الذاهلة على الأرض، لا أفيق إلا فى صدر زوجة أخى تهدهدنى ، أستكين لها ، وأجفف دمعى كى أراه ، أرفع بصرى إلى وجهه باحثة عن شئ ما ، فيتشوش عقلى ، أنفض رأسى بشدة ، أستكين لفكرة الجـــحــيم الآخـر ، الذى أتمنى أن يكون أهون من الجحيم الذى تجلس وحيدة على عرشه ، تُنحى الجميع وتملى شروطها ، باستهانة يستمع إليها والده ، أراها فى غيظ وكمد لأول مرة فى حياتى ، أتشفى فيها وأرثى لها فى آن ! ، ذهب برفقة والده وتركها تغلى ،

انقضى ما يقرب من الشهر قبل أن يعود إلى محطة القطار ؛ وأعود للهرب من رفقته إلى الأبواب الخلفية !، أكره هذه الأبواب ، أمقتها ، ولا خيار لى سوى الولوج فيها خاصة عندما أخمن وجوده على الرصيف ، حسبت أنى نسيته تماماً بعد انصرافه برفقة والده ! ، فعلّقتْ فى ذهنى صوراً جديدة من تلك التى تبدو من نافذة القطار ، صور أحملها إلى فراشى ، تزاحم صور القبو المعتم ! ، إلا أن أمى تكفلت بإزاحة الصور جميعاً ، هى لا أحد غيرها ، أتتنى بخبر عودته وأبيه !

بدون مبالاة نهضت ، تركت نفسى لإمرأة مدربة فى أمر الوجه والجسد ، بالحلوى أزالت الشعر عن أسفل بطنى وتحت أبطى ، وتغامزن علىّ ، ووضعن لى مساحيق عديدة حتى خلتنى فتاة أخرى ، امتدت يدى إلى أسفل ، تذكرت الصوت الذى يملأنى ليلاً ، ذلك الذى استبد بى فى الآونة الأخيرة طويلاً ، رأيتنى وسط جمع من الأطفال والنساء ، جاء وجلس بجانبى لأول مرة، أقبل أحدهم مطالباً إياه بالتوقيع على ورقة بها

قـائمـة الجـهـاز ، وسط الجـمع راح يعـتـرض على أشـيـا ء عـديدة، أتت أمي مـتـحـدية ، سـمـعـتـه يعنفـهـا بألفـاظ جامدة، حدث هرج ومرج ، كأنى أرى مالا يمت إليّ بصلة رحت أتفرج ، أرادوا أو أرادت أن لا أذهب معه ، نهرها، ابتسمت دون أن يلاحظنى أحد ، لأول مرة أشاهدها على هذه الحال ، توارت الدفوف والطبول ، علا لغط وسخط ، والحبـر الأسـود لم يجف فـوق أوراق ذلك الرجل المعـمم، أراد أبوه أن يسترد لابنه كل ما لديهم ويتركانى بعد أن تحل مشكلة المعمم وأوراقه !، أزاحوها عن المكان ، هرول البـعض إليـه، أتوا به زافـراً ، جلس ثانيـة ثم نهض بى مـسـرعـاً، لا تزال تريد أن تسـتـبـقـينى ، تركنى لهـا ، دفـعـتنى أيادٍ عـديدة خلفـه، تكفلت أيادٍ أخـرى بهـا ، أصـابنى دوار، كـدت أسـقط تعـبـاً وإرهاقـاً ، ازدحـمت رأسى بآلآف الصـور ومـلايين الأصـوات وأنا أخطو أول خطواتى داخل شـقـتـه برفـقـة والده! والده الذى أسلمنى إياه، وشيعنى بنظرات تخلو من أى ود .

تخفف من ملابسه فاضطربت دقات قلبى ، حاولت أن أرفع بصرى حتى أراه ولم أقدر ! بسرعة وجرأة امتدت يده ، وأزاحت فى حركة هستيرية تلك الملابس البيضاء ، شُلّت إرادتى ، خفت أن يستمع والده لصوت الألم ؛ فلم أفكر فى أمر الدماء التى عالجتها أصابع يده ولطخ بها الشاشة التى قالوا لى : «إنها ستكون تحت الوسادة» .
رويداً رويداً بدأت أتخلص من طنين رأسى ، وعـــادت لجسدى عافيته ، أرنو إليه وهو يلتهم الطعام بشراهة دون أن يفكر فى دعوتى ! ، لا أعتقد أنى فى حاجة إلى طعام ما ، فقط أريد أن يدلنى إلى الحمام حتى أغتسل من الدماء، بصوت لا يكاد يسمع أفهمته ما أريد ، حدثنى بصوت عالٍ عن أمر المياه الساخنة بلُكنة توحى بأنه الخبير المجرّب ، مطرقة الرأس عدت وقد تركت الباب خلفى مواربا ، فنهض متبرماً وأغلقه، جلست على حافة السرير ، امتلأت رأسى بصور شتى لابد أن تتوالى تمهيداً للحظة المنتظرة ! بعد أن ينتهى من تناول الفاكهة والشراب سوف يقبل نحوى ، يرفع يده إلى شعرى ،

يتحسس رقبتى ، وصدرى سوف يلتصق لأول مرة بصدر
رجل يقبلنى ، شفتاى تكاد ترتجف ، أحلق بهذه الصور
فأنتشى بلذة عارمة ، تلك النشوة التى جعلتنى لا أعير
هذه الدفعة منه أية التفاتة ، هذه الدفعة التى أخليت بها
مكاناً له بجانبى ، ثم ألقتنى على ظهرى فى ذات
اللحظة ! . امتدت يده مباشرة إلى طرف القميص ،
واستقرت فوق المنتصف ، أوحى بضرورة إتمام الخلع ! ،
وفى الظلام وجدتنى أسيرة للصمت اللاهث ! ، حتى بعد
أن اعتلانى ! ، وددت الالتصاق بشدة ، وودت لو أمد
يدىّ حول وسطه، حاجز ما شفاف وسميك منعنى ،
انقضت اللحظات اللاهثة بعد أن تسلل بصعوبة بالغة
إلى لحمى دون أن يصدر عنى صوت ! .

طيلة الاجازة التى أخذتها من العمل وأنا أفكر ليل
نهار، وفى أية لحظة يقترب فيها منى أن يكتمل الأمر
دون جدوى !، ولولا خجلى لصارحتها، لكنها تأتينى
مرغمة وتنصرف بسرعة!، هل كدرنى الأمر بعض الشئ ؟

إنه لم يكدرنى !؟ وسرعان ما تجاهلته كما اعتدت تجاهل انصرافها ما دامت قد خلفت لى أبى وأختى ، فى بعض الزيارات ، ألمحت لى زوجـــة أخى عن الذى لا أعـــرف السبيـــل إلى مكاشفتها به ، تمنيت أن أفضفض لها قائلة : «إننى أحاول أن يبقى معى لكنه ينهض مسرعاً» تدللت وأردت أن أستبقيه ليتحدث معى ! ، لم يتكلم إلا فيما يخص المأكل والمشرب ، وتحقيق رغبات والده الذى يسهم فى المعيشة ، أصغيت له ثم ألمحت بطرف خفى عـمـا يؤرقنى، تحدثت مطرقة عن آثار الصوت العالقة بذهنى! ، صفعنى ! ، إرتج الكون كله ولم يبق سوى الثور وأبيه الذى حضر من حجرته ووقف فى الصالة الواسعة يزلزلنى، سب أمى واتهمنى بمحاولة القضاء على ابنه والنيل من عافيته وصحته، كما فَعَلَتْ مع أبى ، وقال أيضاً : « إن هذا الأمر أتاح لها فرصة السيطرة التامة عليه » . هذا الرجل يعلم أنى ما أحببته قط ، يشعر بكرهى له ، أكره ملامحه الجامدة ، وغلاظة صوته، وقد واتته الفرصة لينقض علىّ ، يحدجنى بنظرات

وكلمات قاسية ، وتملكنى شعور ما بالقرف والغثيان ، وألفيتنى فى دورة المياة أفرغ كل ما فى جوفى .

كما الكرة المطاطية عدت ، عدت بصعوبة فى المرة الأولى ، ثم بت رائحة غادية ، غادية رائحة لا حول لى، يقذفنى هو وأبوه بعنف ، فترد هى وأبى عليهما ! رائحة غادية بينهما ، كرة مطاطية ، فى البدء تلقيت الضربات وحيدة ، لم أحس بالألم إلا فى وجود ولى العهد الأول ، وتزداد الوطأة مع ميلاد البنت الأولى، مرات لا تحصى بضربات لا تعد ، فصرت لا أبالى ، ربما لأن أبى قد مات ، وربما من أجل الأولاد ، هؤلاء الذين تغاضيت عن الكثير من أجلهم ، تغاضيت عن مسألة الصوت، تجاهلتها سنوات ، لم أفكر فيها إلا بعد إنجابى لهذه البنت الثانية التى لا تشبهنى ولا تشبهه ، التى أتت إلىّ فى الخريف أيضاً ، بعد أن وضعتها فى المستشفى ، بعد أن أودعوا خالها السجن مباشرة ، ذلك الشقى الذى ظل يُحرم عملى ، الذى جعلنى أضع هذا الحجاب على

رأسى، هل هزنى خـبـر دخـوله السـجن ؟ لا أدرى ؟!
أخـبـرنى الآخـر بعـد فـتـرة : « إن أخى لم يكن وحـيـداً ،
شـاركـه مـئـات ، بينهم عـشـرات من اليـسـار واليـمين
والوسط ، وكبار رجالات الدين والصحافة والثقافة ».
وقال أيضا : « إن هوجة سبتمبر حملت الجميع فى سلة
واحدة ». وسمعت منه الكثير عن الجماعات الإسلامية
والتنظيمات السرية ، رغم أن الثور لم يقل هذا ، بل
ألقى إلينا بالخبر متشفياً ، وقال : « هذه نهاية لعب
الصغار بالنار » ، كعادتها عاجلته وقالت متحدية :
«إنه يعرف الله الذى لا تعرفه وتدعى أنك على صلة به ،
وسوف يخرج عن قريب » . شيعها بنظرة احتقار وأضاف
موجهاً الكلام إلىّ : « إستعدى لمغادرة المستشفى » ،
وانصرف لإتمام إجراءات الخروج ، انحنى أبى ليقبل
الصغيرة وقال: « سوف أذهب علنى أجد من يطمئننى
عليه » ، ولما رأت فى عينى تململاً انتفضت ، رمقت
أختى بغضب وحثتها على النهوض ، حملتُ الوليدة
ومشيت خلفه ! ، وبعدها لم يجمعنا مكان واحد ! ،

مشيت خلفه وأنا لم أحبه ، ربما لو أحببته لذهبت معه إلى آخر العالم ، فقط أحببت أولادى الذين لم يحبونى بقدر ما أحببتهم ، الولد البكرى والبنت الكبرى يحبونه ، هما مثله تماماً ، وهذه اللعينة كلما شبّت أشعر أنه استقطبها ، وأنها لم تعد من نصيبى كى تشاركنى وحدتى ، تذهب عنى التفكير فى ذلك الذى أصبحت أعرفه جيداً بعد أن صدر عنى أخيراً ! ، قبل وضعها كنت قد نسيت التفكير فيه تماماً ، رويداً رويداً غاب عنى ، فى دوامة الاهتمام برضاعتها وحضانتها ، لم يعد لدّى وقت للتفكير فى شئ آخر ؛ فالبنت التحقت هى الأخرى بالمدرسة ، صرت أتحمل أعباء جديدة لا تدع وقتاً لشئ سواها ، إعداد الفطور مشكلة ، السندوتشات التى يجب أن يأخذها الولد وأخته إلى المدرسة شكلت عبئاً مادياً جديداً بجانب طابور الخبز الذى نبت أمام المخبز لأول مرة بعد عام واحد من العام الذى قال عنه الزعيم : « إنه عام الرخاء » ، والثور لا يبالى ، سوف أدبر هذه المسألة ، أنا لست وحدى ؟! .

دخل الهم بيوت الناس جميعاً ، حتى الذين يبدون غير ذلك ؟! زميلاتى فى العمل ، كلهن فى الهم سواء ، وبين الحين والآخر أرانى فى حيرة من أمر حديثهن عن الذى نسيته تماماً ، أو لعلنى وطنت نفسى على تجاهله وليس نسيانه ، إلى أن دخل الثور على يوم أذاعوا خبر مقتل الرئيس !! حتى هذه اللحظة لم أكن قد فكرت فى مسألة تحديد النسل ؛ ولم أكن قد جاوزت الأربعين يوماً على الولادة ! قلت : « لا أريد أطفالاً آخرين؟! » . قلتها بطريقة تحمل كل اعتراض وعدم رضاى عن اقتحامه جسدى ، رد باختيال اشمأزت له نفسى : « سوف أضع عازلاً خشية الحمل أو الدماء ! » . وكما العجين اليابس تركت جسدى ، بقيت شاردة فى أمر أخى، توهمت أن حادث قتل الزعيم قد يعنى الإفراج عنه! ، ابتهجت وتمنيت أن لا يفسد بهجتى ويردنى عن حرمانى ذلك الشئ الجميل الذى اعتدت عليه ، لحظات قصار لم تتجاوز دقيقتين كالمعتاد ! وجدتها ثقيلة ، كريهة ، أعادت إلىّ كل هموم العالم ! ، ترك (العازل)

بجانب السرير ونهض ، حملته إلى دورة المياه ، مطاطياً ، لزجاً ، بداخله نقاط قليلة ومعروق بخيط واهى من الدماء ، وظل هذا العازل فى مخيلتى طويلاً ، وأعاد إلىّ ذكرى الصوت اللعين .

عدت إلى العمل بعد إنتهاء أجازة الوضع ، أسلمت ذاتى للصور المتوالية ، أخرج إلى الناس أجمعين ، أشعر كأن هماً قد انزاح عن كاهلى ، أظل سائرة من المحطة فى محاذاة الرصيف العتيق ، أقدم خطوة ، أتأخر خطوتين ، ولابد وأن ألج البيت ، وعندما وجدته قد انتقل إلى حجرة الأولاد لم أبال ، وأخذت أتقلب فوق سريرى إلى أن تتزغلل قوى عقلى وتنهار ، وأستلقى على بطنى كالعادة ! ، وأضع الوسادة فوق رأسى ، كيما يكف أوينقطع الطنين الذى سرعان ما يعود عنيفاً ، صاخباً ، لا يهدأ إلا إذا شق جوف السكون صوت الآذان الأول للفجر ، ذلك الصوت الذى يصلنى من عمق سحيق مخترقاً آلاف الصور والأصوات ، دافعا إياها جانباً ،

أنتفض خارج الحجرة التى تلقى بى رأساً إلى الفراغ ، ذلك الذى تشكله الصالة التى تبتلع هذا الانتريه الأسيوطى ، والمنضدة التى أحاطها بالعديد من الكراسى المختلطة لتقوم بعمل سفرة ، والتى تفضى به إلى طرقة أخرى تنتهى بحجرة المطبخ ، مروراً بالحمام الفسيح الذى طالما تمنيت أن يبقى لى دونه ! ، هذا الفضاء يدعونى إلى راحة خالدة وسكون شامل ، أستسلم للمياه ،أسلم نفسى لها لتغمرنى ، أرى شيئاً عجيباً يكتنف هذا البراح، شيئاً لا أشعر به إلا فى هذا الوقت ، شيئاً آخر غير هذا الذى يستبد بكيانى ويشعرنى بأننى داخل قلعة ذات جدران عالية ، وحجرات كثيرة واسعة ، وأننى بداخلها حتى ألفظ أنفاسى ، فأهرب إلى النوافذ فاتحة إياها على مصراعيها ، أشعر بالأمان حينما يلامسنى شعاع الشمس، ويصل إلىّ صرير العجلات التى تصارع الأسفلت بالضاحية الهادئة التى تبدو فى عزلة عن المدينة والتى تبتعد كثيراً عن محطة القطار ، المحطة التى أصبحت أمر عليها دون دخولها ، بعد نقلى إلى

المبنى الذى بت أحمل منه صوراً جديدة !، غير التى ظلت تحملها إلى ذهاباً وإياباً نافذة قطار الضواحى ، صوراً جديدة لباعة ، وعربات كشرى ، وحمص مسلوق ، وبليلة، وفاكهة ، وأناساً سحناتهم متشابهة ، مرهقة ، وآخرين كروشهم وأوداجهم منتفخة، أفواجاً، أفواجاً فى طريقى ، أمامى من المحطة وإليها ، أعود ويلاقينى والده بملامح عجوز كئيبة ، فأتجه إلى المطبخ ، ودائماً يقتحمنى ابنه برائحة غريبة ، فلا ينتظر انتهائى من الطعام ويلتهم ما يجده أمامه ، ويدخل للنوم فيعلو شخيره كثور ! أطرق الباب علّه يعتدل ويرحمنى ؛ فيهب فى وجهى لاعناً أمى ، أمى التى انقضى زمن دون أن أراها ، التى أضبط نفسى متشوقة لرؤيتها ، وسرعان ما تنصرف النفس عن هذا الشعور كأنى أمسكها عن ارتكاب واحدة من الكبائر، تلك التى أنهى أمرى معها بتصريح ذهاب إلى بيتها ، ولا أبلغها ! أكتفى بالخروج مع أختى التى انقطعت عن زيارتى بعد زواجها ، رأيت أن الدائرة قد اكتملت، وأن الحصار بات عظيماً، ولما

حاولت التخلص من هذا الإحساس لم أجد بداً من التقرب منه كزوج ، قلت لنفسى : « يجب أن أضع حداً لمشاعرى نحــوه ، تلك التى فــرضــتــهــا علىّ ظروف خــارجــة عن إرادتى لا شــأن له بهــا » . وقلت : « لا شك أن بداخل الثور طفلاً ، لابد أن أصل إليه وأدلله وأكتسب حبه » . وقلت أيضــاً :« ســـوف أمنح هذا الطفل كل مــا لدّى ، سوف أعطيه ما يريد » ورددت لنفسى : « إذا خاض فى سيرة أهلى كعادته بذلك الأسلوب الذى ينال من كرامتى ويضعهم معى فى موقف مهين سوف ألتزم الصمت ! » .
هذا الطفل يحب المال ، ويحب أن يجلب ما يسد به الفراغ الرهيب الذى يحتــوى الشـقـة ، هذا الطفل يريد أن يأخذ راتبى بأكــملة ويتــرك لى مــصــروفــاً بســيطاً لا يكفى المواصلات ، لا بأس!؟ يرضيه أن أمشى مسافة طويلة من الضاحية المنعزلة التى أتركها خلف ظهرى وأسير، لا بأس ! ، لا قدرة له على أن يصدر عنى ذلك الصوت لأنه طفل، لا بأس ، أنا أحب الأطفــال ، وســوف أتغــاضى أيضــاً عن مــســألة حــرمــانه لى من الأشــيــاء التى تخص

المأكل والمشرب، والهدايا والخروج للفسحة بشكل دورى ، وتبادل الزيارات ، وغير ذلك !، هذا الطفل أبحث عنه وأتوهم وجوده ، وجوده الطفلى !. هاهو ينال ما يناله منى دون مقابل ؟! فأقول له : « إنى ذاهبة إلى بيت أمى ! ». وأفر إلى الطريق بعد أن يشيح برأسه ولا يعيرنى أدنى التفات، أترك البيت فى الصباح إلى عملى ، وانصرف بعد الظهر إلى الطرقات ، وأنا فى إطمئنان تام من أن أحداً لن يسأل عن مكانى ! ، أرانى فراشة ، بعض الشبان يقتربون من الفراشة ، تتمهل حتى تستمع إلى وقع لونها الخمرى ، أحدهم يتغنى بذلك الشعر الذى ينساب ناعماً ومصقولاً على كتفى ، وذلك القوام الملفوف وهاتين العينين اللتين تشعان سحراً وأنوثة عندما تشملهما نظرة واحدة ، تلك النظرة التى تسكر الفراشة لثوان ، ثوان وبعدها تطير قبل أن يلمسها أحدهم، تختال وتطير ، تدرك الفراشة أنها جميلة ، مرغوبة ، تنتقل بحرية فى الفضاء الرحيب ، يهبط عليها المساء تكون قد أرهقت ، استنزفت تماماً ، تلقى فراشها

برحيق الزهور نشوانة، جذلانة ، سعيدة بعد أن اغتلست وتطهرت، وهو يتخذ لنفسه فراشاً آخر ، بعيداً عنها ، لا يعكر صفوها برائحته، الرائحة اللزجة التى تنبعث من فمه ، رائحة الأشياء التى لا يكف عن تناولها إذا ما أراد أن يقترب منى فى ذلك الموعد الأسبوعى !، تلك اللحظات القصار التى عودت نفسى على تقبلها حتى لا يؤرقنى طويلاً همها ، والتى أتخلص منها حينما أنفرد بنفسى داخل الحمام ، وأعود إلى غرفتى وأشغل نفسى بنظافتها، وترتيبها ، أتطلع إلى ألوان الثياب ، وأرمق الصورة التى تجمعنى وإياه بذلك الفستان الأبيض ، التى علقت بجوارها أخرى لأسرتى بعد أن نزعها من الصالة الكبرى، وذلك المنبه الصغير على منضدة كائنة أسفل حاملة ملابسى، ومنامة له لا أدرى لمَ هى فى هذا المكان ؟! والمصحف الكبير الذى حملته معى من بيت أبى ، والذى أعجز عن فتحه ؟! بيد أنى أعجز عن فتحه كلما امتزجت صورته بصورة أمى! ، أعود للزمن السحيق وأراهما داخل إطار واحد! ، فى

هيئة واحدة ، هى طويلة سمينة وهو طويل عريض كثور ، تماماً كما وصفته إحدى زميلاتى فى العمل ، حينما أتى إلىّ ذات مـرة ، ورحن يتـغـامـزن عليـه ويسـألن عن فحولته! ، خجلت من مشاركتهن وبركان الحقيقة يوشك أن ينفجر بداخلى ، يعلن عن فشله الدائم ! ، وعجزه عن بعث الروح فى جسدى الصامت الذى يتوقد ، تحاشيت الكلمـات العـارية التى ينطقن بهـا ، أحـمـر وجـهى ، فصرت فى عزلة عنهن وعن سفورهن ، ألوذ بوحدتى وصمتى ، وأرى صورته توحدت مع صورتها فى الطائر الأسود الغريب الذى يهيمن على الإطار ، الطائر الذى ينقض علىّ ويخطفنى من صلاتى ، ويحملنى إلى مكان مـقـفـر ، خـال من أى شىء إلا بعض النبـاتات البـرية المخيفة ، نباتات لم أرها ولم أسمع عنها قبلاً ، تحوم فوقها طيور عدة على شاكلة الطائر الذى يتشكل فى الإطار ، تتحد لتنقض جميعاً علىّ ، والتى أتخلص منها بالنفط ، أتخلص منها قبل أن تهجم علىّ ، أضرم فيها النار ، والنار لا تحرقها ! ها هو ما يزال جاثماً

برائحتـه الثقيلة ، وهى لا تزال تضيف العديد من الحلى الذهبيـة لمعصمها ، حلى مرسومة بدم وعرق أخى وأبى ، والطائر يفـرد جناحيـه ، وفى ومضـة ينقسم طائرين ، كلاهما يمرق من السقف ، بحركـة واحدة من يدى أذبت تلك الصورة ، حاولت أن أتعلق بشئ آخر غير الأحلام التى تستولى علىّ من فترة ، وتستبد بى، وتذهب عقلى، أحلام جديدة تجعلنى أفكر فى كل شاردة وواردة تبدر من الآخر زميل العمل تجاهى ، أحلام صارت كفيلة أن تجعلنى أهيم على وجهى هكذا ، فراشة أخرى محملة بكهولة العمر وأبناء وأناس يعرفون أنها ألقت الأشياء خلف ظهرها ، وراحت تهيم إثر عبير ورحيق تعرفه جيداً، عبير هذا الذى عاشت معه ، وله ، سنوات ثلاث هن عمر كامل ، اليوم الواحد فيه مقدار السنوات التى عاشتها قبله .

ها هو الزمن يتسع ويمنحنى أرجوحة أتمدد فيها ، أواصل أحلام يقظتى ، أحدق بعينى المفتوحتين فى السقف والتعرجات التى رسمتها الرطوبة ، أعرض عن

أمي وسخطها الدائم عليّ بعد أن تركت الثور وأولاده !
وصرت على أنفاسها كاتمة ، وبدأ تبرمها يخفت بالعجز
أو باليأس ، أو بكليهما معاً ! وصرت لا أبالى ، لا
أبالى بوجوه أولادى المنطفئة ! ، الوجوه التى لم
تفارقنى، حتى فى بيت أمى ، فى أية لحظة ، وفجأة ،
أشتاق إليهم، وأحياناً تنتابنى الهواجس السوداء ، أفكر
فى أنى سأموت قبل أن أراهم ، وأتعذب ، ولا أطيق
نفسى ، وتستبد بى فكرة أن أذهب إليهم ، ولو طردنى،
سوف أتوسل إليه أن يتركنى معهم ، ولم يطردنى ! ،
وصرت أصرخ حتى فى بيت أمى ، وأنا أصرخ ألف
صرخة وصرخة ، وألعن ألف لعنة ولعنة ، ألعن تجار
الملابس والأحذية ، وباعة الخبز والخضار واللحوم والفاكهة
، ألعن الأطباء والمدرسين ، ورئيسى فى العمل ،
فالأشياء والآدميون ينظرون إلىّ بلا رائحة ، أرى
السيارات تروح وتجئ بلا حب ، أذهب إلى العمل وأترك
الأولاد فى الشارع ، فى عيونهم بريق ، لكنه صار
بريقاً خابياً ، الآدميون ينظرون إلى عيونهم المنطفئة ،

وهم ينظرون إلىّ ونظراتهم تفقد معانيها ، وأنا أرنو إلى السماء والبيوت ، أجدها غريبة ، وهو لا يبالى ، منذ فترة قلت له : « إبحث عن عمل إضافى » . رد بغلظة : « لم تعد هناك وظائف حتى لقدامى الخريجين » . ولمّا رأى الاستنكار فى عينّى صرخ : « أنا مريض يا امرأة ؛ ألا تعلمين أن الورم تمكن من عظامى ! » تركت له الصالة وأغلقت الباب فى وجهه !، ثم عدت إليه ثانية ، متحفزه، متنمرة ، لا عنة ! ، وأوشكت أن أسمع سيل الشتائم البذئية التى سيقذفنى بها ، لكنه استمر يستمع إلىّ فى بلادة وقد فغر فاه ، وللحظة خاطفة خيل إلىّ أنه تلاشى ، وسرت فى جسدى رعدة ، كأنى أرى ظاهرة خارقة من ظواهر الطبيعة ، إن هذا الذى مر كالشهاب فى عينيه ثم اختفى ؛ أعلن عن وجود إنسان فى هذا الكيان أو الجسد المتداعى ، أيكون هناك احتمال للقاء حقيقى بينى وبينه ، لقاء إنسان بضعفه وقلقه ومخاوفه ، مع إنسان آخر بضعفه وقلقه ومخاوفه ؟! هل هناك شئ آخر حقيقى خلف هذه الواجهة ؟! ، لا أدرك ما الذى ألمّ بى

فى تلك اللحظة ، لقد ارتبكت ، وخفت ، ثم تحولت مشاعرى فجأة من نقيض إلى نقيض ، وصلنى صوته وهو يحكى للولد الكبير أن الطبيب قال له : « إن العلاج التقليدى لمرضك لم يعد يجدى ولابد من العلاج الكيماوى » . ولا أدرى متى تنبهت لعدم تناوله لطعامنا ، وأنه يعد لنفسه أطعمة لا طعم لها ، وأن عينى اعتادت رؤية العديد من العقاقير الطبية والأدوية بجانب سريره الذى أرتبه وأغير مفارشه بحكم العادة ، أو لأننى لا أحب أن أرى شيئاً غير نظيف ، أو غير مرتب ، أفتح النافذة التى تطل على مسقط النور الخلفى ليتجدد هواء البيت ، وفى الصباح أخرج إلى عملى ، صار العمل هو حياتى ، أو بمعنى أدق صار وجود الآخر فيه هو حياتى ، حياتى التى لم أعشها ؛ فوجهه وهو يخاطبنى يحمل وهجاً ، ولما يحدثنى عن حزنى الدفين يتبدل حالى ، يأخذ لبى ، وحين أعود تضيق بى الدنيا ، تضيق أكثر عندما ينفذ أبى إلى أعماقى ، يأتينى من العالم الآخر زائراً ، مدركاً قاع نفسى ، يهدهدنى كثيراً ،

يأخذنى فى صدره كى يبتعد بى ، وأنا لا محالة عازمة
على المضى فى الطريق الجديد ، الطريق الوحيد الذى
أعرف أنه بلا عودة !، فى الليل أستيقظ فزعة من
الأحلام الحزينة ، أفتح عينّى على الصغيرة توقظنى ،
أسمع أمى تتوجع فلا ألقى بالاً ، أتعجل خروجى إلى
الذى يحوطنى بالدفء ، فكرت طويلاً فى قوله : « إنه
يهتم بى أكثر من أى شئ فى العالم ! » . قال هذا ثم
أخذنى للمرة الأولى عنوة !! ، لا أريد أن أتذكر تفاصيل
هذه اللحظة التى أعقبها الخروج الأخير ! فقط لا أتذكر
سوى الكلام الذى سمعته منه بعدها ، سمعت منه كلاماً
حلواً لا يعنى شيئاً، ثم بدأت نوبة الإهمال !، يبدو أننى
لم أمثل بالنسبة إليه إلا مغامرة ، أو نزوة ،كما يبدو أنه
بدأ يزهدنى ، يجب أن أرى حلاً ، العالم كله أمامى
فارغ، فارغ ، النوافذ أمامى مفتوحة أو مقفلة !، والناس
تسير فى الطريق ولا أحد يعرف بفشلى ، ويوماً ما
توهمت أنى سأقول لا !؟ ، فى ذلك الوقت لم أكتشف
حبى له ، وعشت أتوهم أنه يحبنى ! فى الآونة الأخيرة

اعتاد أن يلقانى فى بيت أمى ، يأتينى مرغماً ، بشىء أقرب إلى الهذيان قلت : « إننى سأذهب إلى أبى » . صرخت حتى أهتز جسدى وارتجت جدران رأسى ، ولم يسمع صراخى أحد ، أصبحت وحدى تماماً ، بلا أحد ولا حتى هو ، يأتى إلىّ بآلية كلما ألححت ورجوت ، يبادل والدتى العداء حين يعلو شهيقها ، ويتململ ، أرجوه أن يطردها من رأسه ، يلغى تماماً وجودها كما أفعل أنا ، ويتفرغ كاملاً إلىّ ، ثم بدأ يضيق بى كما يضيق بها ، يبدو كما لو كان على وشك الإختناق ، ينصرف ، وترتفع دقات الطبل فى رأسى ، طبل عنيف ، صاخب ، علمنى أن أحس بالغيرة ، ذات مرة ذهبت إليه على غير موعد ، وجدت معه فى المكان الذى اعتدت أن يلقانى فيه إمراة أخرى فى طبقتها وطينتها ! ، نظرت الأخرى إلىّ نظرة ذات مغزى رداً على صدمتى واستنكارى ، ولم تدع لى فرصة إتمام الحجة التى نبتت على طرف لسانى ، وهمت بالانصراف ، وقام يوصلها وتركنى جالسة تتنازعنى أفكار ومشاعر كادت تفتك بى ، ولما عاد سألنى

ضاحكاً : « ما الذى يجعلك صامتة مكتئبة هكذا ؟! ».
صرخت فيه ، أضاف ببروده إلىّ أضعاف ما شعرت به ، أخرسنى حين قال : « لابد أن نراعى المكان حتى لا ينفضح أمرنا ! » . أردت أن أكظم غيظى وسألت بعصبية : « هل تتزوجنى ؟! » . نظر كأنه ينظر إلى طفلة بلهاء ، وضحك ضحكة غريبة ثم قال : « أنت زوجة ألا تعلمين ؟! » . انفجر بركان البكاء فاقترب يهدهدنى ، يأخذنى فى صدره ، أزحته بعنف قائلة : « هل تحبنى؟! » . دفن رأسه فى صدرى ، غمغم بكلمات غير مفهومة ، ارتشف دموعى بفمه ، مسحها بلسانه ، وانحلت خيوط جسدى كالعادة ! بعدها قلت : « إننى لا يمكننى أن أتمنى شيئاً آخر مادمت معك » . ثم سألته مرة أخرى : « هل تحبنى ؟! » . أجاب : « إنه لا يمكنه تحديد هذه المسألة تماما ، وأن ما يربطه بى يحيره ويؤرقه ». وقال أيضاً : «ما من شئ يمكن تحديده بدقة ».
وأضاف بعد أن ابتعد عنى نهائياً ليرتدى ملابسه : «إننى أشعر فى بعض الأوقات بأنى أعرف ما بيننا

وأحدد المسألة بمنتهى الدقة » ، وأرسل بصره إلى خارج النافذة ، أو لعله تعلق بصورة صاحب المكان وقال بصوت خفيض : « وفى وقت آخر أرى وجهاً متغيراً لنفس المسألة » . وأضاف دون أن تلتقى عيناه بعينى الذاهلتين : « ربما فى وقت ثالث يتغير نفس الشئ ! ».

هل خرجت إلى الشارع شبه عارية ؟! هل أحكمت غطاء رأسى ؟ لا أدرى ؟! رأيت فى نظرات الناس معانى عديدة تحمل شيئاً من هذا القبيل ! أظن أننى سمعت صوتاً ما ينبهنى إلى أزرار البلوزة المفتوحة ! ، وآخر يقهقه وهو يتحدث عن الجيبة المقلوبة ! ، علنى فى هذه اللحظة أخذت تاكسياً ، ولعل وجهه فى ذلك الوقت مرّ بى من النافذة ، ورأيت عينيه تنظران إلىّ تجتاحنى ، وتذكرت جميع الأشياء فى وقت واحد ، ولم أجرؤ أن أقول: « إننى أتمنى فى تلك اللحظة نفسها أن أراه ! » . أن أشكو إليه ، أطلب منه أن ينزع النصل الحاد الذى غرسه فى جسدى ، أن أريح رأسى المتعب عنده ، أقول له بأية نبرة أن صدره أكثر رحابة من هذا العالم الضيق

المقفل ، وحين أغلقت الباب خلفى واستلقيت على سريرى قررت أن لا أراه ثانية ، تمنيت أيضاً أن يصيبنى مرض يجعلنى مذهولة لا أرى أى شىء ، لا أهتم لأى شىء ، أتصرف طبقاً لطبيعة جافة بدون أى حس، وفى الصباح سمعتها تتوجع من آلام قدميها ،ولم أرث لحالها ، صارت فى وضع يدعو إلى الشفقة ، انهدّ جبروتها بعد هروب محتالى توظيف الأموال ، وجدتنى أرمقها من أسفل إلى أعلى وأنصرف إلى عملى ، إليه ، سألتنى إحداهن : « ما بك ؟ أنت شاحبة ومرهقة للغاية » ، قلت :« أنا مريضة » . تقصعت قائلة : « ألم يحضر الطبيب الخاص ؟! » . لا أعرف كيف أفقد القدرة على مواجهتهن ؟ ورحت أفكر فى كيفية لقائى به وقد تأخر على غير العادة ! ، عصفت بى دوامة عنيفة من الأحاسيس المتناقضة ، وحينما نظر إلىّ نظرة خلتها تنبئ عن إعتذار ما وددت لو انفردت به !، ووددت أيضاً لو تمكنت من صفعه ، أو ضمه إلى صدرى، ولم أنتبه لتعليمات رئيسنا فى العمل الذى نفد صبره ، واتجهت

الأنظار إلىّ حينما عنفنى ورمانى بالإهمال ، تشفت اللعينة فىّ هى ورفيقها ، لم تعد تخفى مشاعرها العدائية تجاهى ، كل من بالحجرة صار على بينة من أمرى ، ليس هناك شيئٌ أخاف عليه أو أخشاه ! نظر نظرة لم أتبين مغزاها ، ونهض مغادراً المكان ، لم ألق بالاً لأحد حين سألته بعصبية : « إلى أين ؟! » . لم يرد علىّ ! ومن المؤكد أنه استمع إلى ضحكاتهم الساخرة ! ، بيد أنه ذاهب إلى هناك ! ، الحقير يلقى أخرى فى مكان خلته بيتى معه ، عصفت بى الدقائق القرون إلى أن نهضت خلفه ، شيعتنى نظراتهم وضحكاتهم ، لو فكر أحدهم أن يتعقبنى لوقعت الكارثة ، وليتها تقع ! ، وجدته قد ترك الباب موارباً ودخلت صامتة ، سرت إلى مقعد وحيد وجلست ، جاء وجلس جوارى بعد أن أحكم غلق الباب من الداخل !، أخذنى فى صدره وراح يقبلنى ويؤكد لى أنه يحبنى !، أخذت أنظر إلى الأشياء التى أعادت لذهنى صور الأمس دفعة واحدة ، حملنى إلى الحجرة الداخلية حيث مكتب صديقه المحامى ، رأيت من

جانب رأسه الملقى على كتفى كتب القانون السوداء،
وميزان أصفر صغير على يسار المكتب الذى يكتظ
بالعديد من دوسيهات القضايا التى استقر فوقها غطاء
رأسى وبقية ملابسى ، كان الجو حاراً وعرقه غزيراً، وأنا
أنظر إلى الفراغ المتسع عبر النافذة ، وأدس أصابعى فى
شعره ساهمة إلى أن بدأ قطف ثمار صدرى ، الثمار التى
باتت ناضجة منذ اعتيادى هذا المكان !، وضع الثمار فى
فمه، مضغها واحدة تلو الأخرى ، راح يجوب أرجاء
الحديقة التى فتحت له كل أبوابها ، حملنى الى
السموات السبع وأرانى أطياف الجنة ، هبط بى قاع
البحر كى أحصد أجمل اللآلئ ، رأيتنى فى الكون
أرجوحة ، أهبط به ويعلو بى ، يهبط بى وأعلو به ،
أجلسنى على ضفاف الأنهار وأرانى الأحلام الجميلة
بأحلى الألوان ، سقيته عصير الورد والتمر والعنب ،
عصرنى حتى صرت شراباً يُروىَ ويرتوى .

عُدت إلى بيت أمى وحيدة كما خرجت وحيدة ،
أضأت الأنوار لكننى لم أشعر بالدفء ، جلست أقلب

أشـيـائى ونمت وكل شئ حـولى ، وعندمـا شق الخـيط الأبيض السـمـاء جلست فى فـراشى ووجـدته دافـئـاً ، تذكرت أنه لم يفارقنى وأننى لم أتركه لحظة ، سرت إلى دورة الميـاة واغـتـسلت !، بحـثت عن طعـام فلم أجـد ، ذهبت إلى الحجرة المجاورة فـأبصرت أمى وصـغـيـرتى ، كانت عيـونهم مغمضة ، قلت : « إن نومهم عبادة » . البيت يبدو هادئاً . عدت وجلست على الأرض ، ساقاى ممدتان ويداى قابضتان على الهواء ، وحين دخلت ابنتى قـمت وغـيـرت وضـعى ، ثم رقـدت على بطنى ! وعندمـا طلبت منى نقـوداً اكتـشفت أن راتبى نفد ، وأن الشهـر لم ينتـه ، وأنا الفظ أنفـاسى قلت لأمى : «البنت فى حـاجـة إلى نقـود » . نظرت إلىّ من أعلى ولم تنبس ، ولأننى مـازلت تحت ضـغط الحـاجـة عـاودت الطلب، فأعادت إلى ذات النظرة من أسفل ! ؟ أخيراً قررت أن أحترم نفسى وأخرج مؤكدة : « إن كان لابد من الطلب فليكن منه لأنه مـسـئـول عنى وعن طفلتى ! » . ولم يدعنى أكمل حكايتى مع أمى وأعطانى ، ثم اكتـشفت

أنه حقيقة يزهدنى ، وأنه يعاملنى بجفاء ! ، دفنت أحزانى داخلى وسادنى الصمت ، وصرت كل يوم أنتظر، وطال بى الانتظار ، أدمنت الانتظار فوق هذه الكنبة ، أجلس وحيدة وأرنو إلى النافذة بالساعات ، أرى وأسمع عن (التحالف الدولى) ، ثم (النظام العالمى الجديد) الذى أرغم غالبية حكامنا على المشاركة فيه ؛ فانتهى للغرب أمر الهيمنة على الخليج !، والمنطقة بأسرها !! ، لو كان معى الآن لقال : « إن (عاصفة الصحراء) لم تنل من (العراق) فحسب ، بل عصفت بالقوة العربية ، وتركت قوة (إسرائيل) كما هى ، إنه الذل والهوان » . أكتم المذياع ! ، وأسأل نفسى عن الهوان ؟! ولا أجيب !، حتى أصبحت وقد نسيت الكلمات كيف تقال ، وفجأة دلفت من الباب إلى الشارع حيث الدكاكين والبيوت المقامة حديثاً، ورأيت الناس الجالسين أمامها وبداخلها وعلى المقاهى ، المسافرين فى طريق المحطة ، والمطلين من نوافذ السيارات والقطارات ، عيونهم ترقبنى ولا ترقبنى، رأيت المستنقع يملأ الشارع ، وفى وسط الميدان

شاهدت الأعمدة ذات الضوء الأصفر واللمبات الكبيرة ، أنقاد إلى طريق طالما سرت فيه مئات المرات ، أصعد درجات السلم التى بت أعرفها درجة درجة ، أنظر إلى الباب الذى خلته ينتظرنى موارباً ، فأراه مغلقاً ، أقرع الباب بعنف وأنا أبحث فى رأسى وحقيبتى عن مفتاح ما ، أكتشف أننى لم يعد معى مفتاح ، وأن هذا المكان بات مهجوراً منذ فترة ، وأنه لا يوجد من يفتحه لى ! ...

القسم الثانى

(قصص)

* خطاب
* الأسير
* الألبوم
* حكاية المنديل الذى عُدت به

خطـــاب

صديقى الحميم / « . . . . »
الذى امتزج دمه بماء النيل .
تحيتى ومحبتى وبعد

أكتب إليك من « طنطا » غرة مارس - آذار ١٩٩١

بعـد رحيـــلك بعـام ، عـامـين ، لا أدرى ! دخلـت « ياسـمين » الصف الأول الإبتـدائى ، ومـاتزال ، تذهب كل يوم ، وتقف فى طابور الصباح ، وتهتف من قلبها :
« تحيا مصر ، تحيا مصر »

تماماً كما علمها الأستاذ ، وكما تعلمنا - أنت وأنا والجميع - ونحن فى مثل سنها الأخضر ، حتى صرنا ، أينما نكون ، داخل هذا الوطن ، أو خارجه !، نعلم كيف نهتف له .

★★★

صديقى / ...

نحن بخير ، لعلك تكون !

ننهض كل صباح ، نأكل اللقمة المرة ، نقرأ الجرائد المرة ، وعندما يحل المساء أحاول قدر استطاعتى أن أمنع « ياسمين » من الفرجة على التلفاز الذى يقدم بأناقة ، وابتسامة مؤدبة ، خريطة العربى المفرنجة ، ويحدثنا عن إختلاط الأجناس ! ووأد براءة الأطفال ! .

هكذا - ترى - إننا بخير ! .

★★★

ولا بأس من أن تشاركنى جلسة عائلية ! .

مداعبة ، سألت الحماة ابنتى الصغرى :

- « تغريد » عايزة تبقى إيه ؟ .

ردت البنت باختيال :

- ضابط !

دهشت المرأة وقالت ضاحكة :

- إبنتك تريد أن تصبح ضابطاً !.

عقبت مبتسماً :

- لمَ لا ؟ هذا عمل فيه مجال للإناث ! .

- ....

★★★

أما ما يثير قلقى يا صديقى العزيز أن الصغيرة «تغريد» التى جاوزت الرابعة بشهور اعتادت هذه الأيام أن تلعب لعبة جديدة ، تبدأ اللعبة باستدراج أكثر من طفل ، « آية » ، و « نهال » أخواتها ، ومعهن أبناء عمومتها ، و«سماح» ابنة خالتها ، وبخفة تحسد عليها تجمع عدداً آخر من ذرية الجيران - وهم كُثْر ، كما تعلم - وتأمر الجميع بالوقوف صفاً واحداً ، ثم الجلوس بعد رفع اليدين متشابكتين على الرأس ، والصغار يفعلون كل ما تطلب فى طاعة تامة واستسلام عجيب ، بينما هى كما الطاووس تقف فى شموخ ، وملامح تتلون بمزيج من تعبيرات العظمة والكبرياء - وغالبا الصلف والغرور - تماماً كما رأت الضابطة الأمريكية التى تكرر ظهورها على الشاشة الصغيرة وهى تسوق أسرى (حرب الخليج) الذين يفترشون الصحراء «العراقية / الكويتية » وبلوغاً باللعبة درجة الكمال تأمر الشقية « تغريد» أترابها الصغار بالهتاف :

- « أمريكا ، أمريكا »

★★★

واكتشفت أن الكبرى باتت حائرة بين ما تردده فى الطابور ، وما تراه ، وما تسمعه فى البيت والشارع ! ، واليوم - فقط - رأيت فى عينى « ياسمين » أنها عادت بعد أن وقفت فى الطابور ، وحاولت أن تحرك شفتيها ؛ لكنها لم تنطق ! .

هكذا ترى ، أننا جميعا - ولعلك تكون - بخير ؟!

المرسل

« .... »

الأسـيـر

« أليـست هذه بلاد رب الشمس رع ؟ متى يهب لنجدتها الراعى الصالح ، من لا يعرف قلبه الموجدة، الذى إذا قلت مواشيه قضى يومه يجمع شملها، ويروى ظمأها ويداوى عللها، متى يجئ فيجتث الشر من أصله، ويسحق البذرة الفاسدة قبل أن تنبت ؟ أين هو اليوم ؟ هل راح فى غيبوبة النوم ؟...»

الحكيم الفرعونى ايبو - وير

« وصاحوا : لقد آن أوان القيام على هؤلاء اللئام فهذا وقت الانتصار للإسلام ...»

عبد الرحمن الجبرتى

- تبـرّم بالحيـاة فى لحظة يأس وفكر فى الانتحـار عندما سُدت أمامه جميع أبواب النجاة .

★ **هذه القصة**

نشرت فى مجلة (الموقف العربى) عدد مارس ١٩٨٦ قبل غزو العراق للكويت ، وقبل (عاصفة الصحراء) ، وكان قد مضى علي نشرها خمسة أعوام ، وقد ندمت لعدم وجودها ضمن مجموعتى «الأنتوبى» الصادرة عن دار الغد عام ١٩٨٩ قبيل هذه الحرب ! .

هكذا أخبروني محذرين كي لا أتهاون معه .. ضحكت في مرارة ضحكة كالبكاء .. بقيت على مقربة منه أتأمل وجهه الشاحب الذى رسمت عليه الحرب خطوطاً من الشقاء .. لا أعرف أين أنا بالتحديد ؟! وقفت أمامه بمفردى .. حرت فيما يفكر ، فاختلطت مشاعرى بعنف ! ولكن كيف يهرب منى هذا الأسير المصاب الذى فقد السمع والبصر ؟! لا شك أن القادة يبالغون .

(... ترك الغريب ابنه المدلل يعبث كيف شاء في كل مكان ، أصبح وأمسى لا يتورع عن هتك الأعراض وامتهان الكرامة ، ولكسر شوكة ذلك العربيد وأعوانه جمع ولى نعمتى الجديد - صاحب محطة البنزين - كل أمواله ، وأقنع كل أولاده بحتمية حمل السلاح للقضاء على الغر المتكبر ، وبات الأمل في استمرار العمل داخل المحطة معقودا عليّ أنا وأقرانى من الخدم ، واضطر أن يستعين بالبعض منا بجانب أولاده فقال :

- إننا إخـــوة ، والخطر يتـهددنا جميـعـا ، وحتـمـا سينال من رزقنا .

ولم يبـذل جـهـدا فى إقناعى بحـمل السـلاح ، ولست أدرى - بعـد ذلك - كـيف ، ومـتى ؟ انقلبت الموازين ، واختـلف الأخـوة ، وتحـول السـلاح فى يدىّ إلى صـدر هذا الأسير الذى يحتضر ، دون الفتى المنشود ؟ ...)

إنه يرافـقنى وحـدتى ، ويسـتـمع مـعى إلى الصـمت المثـقل برائحـة الدمـاء .. يخيل إلىّ أنى رأيتـه قبل ذلك مرة أو عدة مرات ! نظرت إليه فى هدوء يتجاهل الحرب ، ينفى الخطر ، يزيل الذعـر الذى يسـبق مـجئ الطائرات بثوان ، والتماس الأمان ، أى أمان ؟

(... يتـسلل الظلام لقـريتى زائراً غـريبـاً ، فـارقت أسرتى شاباً ريفيا خجولاً ، تركت البيت يضيئه مصباح لا يكاد يبدد الظلام ، وكلب ينبح ، وطفل يبكى بعد أن خرج أبوه مثلى ساعياً وراء لقمة العيش بالمدينة .. سرت

فى طرقات المدينة المزدحمة جداً على غير هدى .. لم يك أمامى سوى صديق طفولتى ، الذى قالوا عنه : إنه سعيد الطالع مادام عمله مع أغنى وأشهر رجل .. رحب بى الصديق ، وأيقنت أن الرجل الكبير ، ذو السلطة والنفوذ يثق به ، ويترك له - أحياناً وليس دائماً - كل شئ ، وأسعدنى ذلك جدا ؛ فعملى أصبح مضموناً ومؤكداً .. وبت أحلم بأيام حلوة ، صباحها فرح ، سماؤها بلا غيوم ، أناسها يضحكون ...) .

وفى هذه الأيام صارت جثث القتلى مطروحة فى كل مكان .. توالت القذائف ، وانشقت الأرض ، وتبدلت السماء، وظهر فى الجو - بوضوح - ذلك الجسم المعدنى، لولبياً ، متقلباً نسراً هائجاً، يرتجف له الهواء ، تماماً كما ارتجف شئ ما بداخلى - لم أعرف كنهه حينما رأيت حمامة بيضاء ترتعش من الخوف ، مصابة فى جناحها الذى ظل ينزف خيطاً أحمر .

(... ارتجف قلب صديقى لابنة صاحب العمل ،

ولم أله يوماً على اهتمامه بها ، كما لم أله لعدم فراغه الكامل إلىّ - لكثرة مهامه وأعماله - وتفانيت فى عملى الجديد كخادم بين الخدم ، وكان الرجل الكبير يرتدى بين الحين والآخر زياً شعبياً ويجلس بيننا نحن الخدم ، وبالرغم من ذلك لم ينجح فى إقناعنا بأنه واحد منا ، كانت الهوّة بيننا تتسع ، لأنه يحيا فى قصره حياة ناعمة ، ونحن فى أكواخنا بلا زيت أو دقيق ...) .

تأوه الأسير ! فوجدتنى رغم كل التحفظات ، والمحاذير أشفق عليه وتمنيت أن ينطق ويفضفض ، ووأدت إغراء رغبة حادة فى أن أجبره - ولو بفعل شاذ - على الكلام .. وبالرغم من أننى أعلم أن مسام أذنيه موصدة حكيت له بصوت مسموع : إننى أحببت امراة اضطرت أن تبيع جسدها بعد وفاة زوجها من أجل ابنتها المشلولة وأمها العاجزة ؛ فتزوجتها .. وخيل إلىّ أننى أعيش وسط أسرتى التى فقدتها ، ومع ذلك كنا نفتقد السعادة ، فكثيراً جداً ما كانت زوجتى تبدو حزينة وأرى

الدمع فى عينيها .

وأحسست به يبكى بكاءً مريراً ممزوجاً بالقهر ، فأمسكت عن الكلام ، وصارعت دموعى المثقلة بالذل والمهانة، وانهمكت فى بكاءٍ صامت .

(... حين سألتها عن سبب البكاء؟ زعمت أنها تحس ببعض الضيق بسبب إجهاد فى الأعصاب ! لكننى لم أصدق ، فقد كنت أعلم السبب الذى يقوض سعادتها ، لذا صارحتها - أى زوجتى - فى حنان ورفق، بأننى أعلم سبب حزنها ، قلت لها : إننى سأسافر ، وأحصل على المال من بلد أخر كالآخرين، وأجهشت بالبكاء وهى تودعنى ، وألقيت على بلادى نظرة وداع من خلف غشاوة الدمع ...)

كثيراً ما تعلن الهدنة ، ويوقف القتال ، بسبب وبدون سبب تستأنف الحرب كأن شيئاً لم يكن ، تخرج الدانات من مدافعهم تطارد الفرقان ، الهاون الثقيل

والخـفـيف مـقـصـده الحق والقـول الحق ، س س . ٢ ، العمامه، بير شينج٢ ، الفانتوم ، من يأت بالعربى حياً أو مـيـتـاً له الملك ، من يقـتله له السـلام، له الأمـان .. الأوامر دائماً تأتى من أعلى ، من حجرة مكيفة مبطنة هادئة بعيدة جداً جداً عنا .

ورف عصفور وحط على سلك شائك ينفض الدماء ، بعد أن كان يتخبط فى الهواء ، ويبحث عن طوق للنجاة، وحين وجده فرد جناحيه وراح ينفضهما ، ثم استكان تماماً، استكان لذلك الانكماش الأبدى .. وخيم الهدوء المشوب بالحزن، وتوتر جسدى وانتظرت العاصفة ، وهى لابد آتيه بين لحظة وأخرى ، وتسلل إلى أعماقى صوت الفناء الساخر؛ فكان أحب إلىّ لو ظللت فى وطنى - رغم الجوع والفقر وكل شئ - ولم أغادره أبداً أبداً أبداً .

(... أصبحت فى أرض بلدان لم تطأها قدماى من قبل، بلدان بها المارة قليلون والطرقات واسعة متألقة ،

والعربات أنيقة فارهة ، والحدائق مزدهرة - بين الفيافى والقفار - ووجدت العمل فى محطة البنزين بأجر لم أحلم به ، وكنت أقضى وقتى بين العمل والبيت لا أكاد أعرف من هذا البلد سوى عملى وإقامتى .

وقابلنى صدفة ذات يوم رجل حذا حذوى - لأنه من الخدم مثلى - فأخذته معى فوراً ، وسألته فى لهفة بالغة عن زوجتى ، وأصحابى الخدم ، وصديق الطفولة ، وأخبار الفتاة المحبوبة ووالدها صاحب العزة ؛ فأخبرنى أن زوجتى وابنتها وأمها والخدم كلهم أحياء .. وأن أحد الغرباء - وهو ولى أمر الفتى الفاجر - طلب من البك الكبير التقرب من معبودة الجميع كخطوة أولى لحساب الأبن المدلل ؛ فوافق مبررا ذلك بحمايتها من الصراعات ومناشدة السلام، وأخبرنى أيضاً أن أهل الفتاة وكل أقاربها أجمعوا على عدم الاعتراف بهذه المصاهرة وقاطعوه إلى أن راح ضحية موقفه ، وأتت الرياح بما كانت تشتهى نفس صديقى العزيز !! ...)

ورأيت الغيوم الرمادية تتكاثف وتتجمد فى السماء، وبدا النهار معتماً ، وحاول رفيقى - الأسير - جاهداً أن يرسم على وجهه أى معنى ؛ فاختلجت عيناه وشفتاه وتطوحت ذراعاه العليلتان بلا هدف ، ولم ينطق بشئ ، وفجأة صدرت عنه أنة مكبوته وبعدها لاذ بالصمت .

ودارت بى آلاف المشاعر فى دوامة قاسية، وجالت عيناى بلا وعى فى الصحراء - خارج الدشمة - واصطدمت بشبح دانة ، ودخان ، وأشلاء إنسان .. وعندما سمعته يهلوس قلت فى نفسى : ربما يجتر مواقف بعيده ، قريبة ، بقايا أنغام ترسبت فى أعماقه ، ربما صرخة جندى ذهب أمامه - إلى الأبد - ولم يعد ، باختصار كان يهذى : أبو فلان ، وعلان ، قابيل ، هابيل لا عتاب أصدقاء ، فى الصدر حجر مكان القلب ، وبصوت غير مسموع ردد صداه اللاوعى عقبت على هلوسة الأسير أو أكملتها بجبن ، فأنا أعلم أن الكلمات تقصف ، الشرايين والأوتار تقطع ، لا فرحة بلقاء ،

النشوه خيانة ، والصلاة عهر ، وكل حى لابد وأن يلتزم مكانه ويبنى حول نفسه قلعة من الصمت .

وخيل إلىّ أننى أدور معه فى دوامة عنيفة ، وشيئاً فشيئاً بدأت ملامحه تتضح لى كأنما أنقشع عنها الضباب الكثيف الذى كان يغمرها ، وكأننى أستيقظ من سبات عميق وجدت نفسى أدقق فى ملامحه ، لابد أننى أعرفه ! وحتما سوف أعرف الصلة التى تربطنى به لو نفضت النوم عن رأسى، ولكن هل نمت أنا ؟! هل مازلت نائماً؟ !!! أنا اليقظ المتداعى تعباً وكسلاً وإرهاقاً .. وظللت محدقاً فى اللاشئ ، وكل شئ بعينين ذاهلتين وعقل لا يعى شيئاً ، إلى أن حضرت سيارة (جيب) ونزل منها ضابط كبير وأمر جنوده باستلام الأسير منى وهو بين الحياة والموت ...

رأيتهم وأنا بين إغفاءة وإفاقة يحملونه محاطاً بالأسلحة، ونظرات باهتة مشفقة ، ربما متشفيه ، باسمه، لا علم لى بها ، كما لا علم لى به ، أو بهم ، أو حتى بنفسى .. وما زلت - حقيقة - لا أعرف أين أنا ؟

الشيء الوحيد الذى أعرفه جيداً ، أننى كنت ومازلت أحارب ! أحارب من ؟ وأين ؟ لا يهم ! فخصمى - أى خصم - فى مكان ما ، فى بلد ما ، لكنه بعيد كل البعد عن الفتى الفاجر الماجن .

وصرت وحيداً فريسة لانفعالات شتى أضيق بأسمال هذا الزى المتهرئ المملوء بالدماء والرمال ورائحة البارود .

الألبـــوم

ها هو فى الصفحة الأولى من الألبوم ، يضحك فى براءة، ويجب أن يضحك طالما يخطو بزهو إلى جانب هذا العملاق المهيب الذى يرنو اليه الجميع فى وجل وتقدير ، ترى لو لم يكن هذا العملاق هو والد « فريد » الطفل ؟! هل كانت نظرات الناس إليه كما هى فى هذه الصورة ؟ أكان هذا الولد يجرؤ أن يقتحم عالماً غير عالمه ؟ ويفسده بغطرسة أبدا لم يأخذها عن والده لأنها لم تكن فيه ! كم كان هذا الطفل صاحب هذه الصورة ثقيل الدم ! ، كان دلوعة حتى وهو يجلس إلى الشيخ فى الكتاب ويحب أن

★ وهذه القصة أيضا:

قدمها العبقرى الراحل د. يوسف أدريس بمجلة الهلال أغسطس ١٩٨٥ وعلى الرغم من الإشادة بها لم تتضمنها المجموعة الأولى !

تحية لروحه وسلاماً .

يسمع القرآن ، أما حفظه فكان مشكلة ، لذا لم يعن بأمر الحفظ ، وكأنه بذلك يشهد أقرانه على أنه أفضل منهم ما دام الشيخ لا ولن تمتد عصاه إلى جسده كبقية الأولاد ، وكأنه أيضا يشهدهم على جبن وخوف الشيخ من أن يصيبه حتى بما فيه مصلحته، هو نفسه ذلك الولد الذى كان يلعب ويجرى كثيراً إلى أن ينتهى به المطاف أمام الجامع الكبير فيظل يقفز ويقفز من فوق جداره العالى كما الشياطين ، كثيراً ما كان هذا العفريت يحب الجرى، فلم يمر يوم عليه إلا وقد اشتكى العديدون من شقاوته لوالدته التى لم تنهره أبداً ، وكان يخاف أن تصل أخباره السيئة إلى والده - على الرغم من أن يد والده لم تمتد عليه يوما ما - ولكن ما دامت أخباره هذه بعيده عن أسماع والده ، طالما كانت أمه تخشى أن تخبره لشدة بأسه ، فهو فى مأمن ، ولا يعدو الخوف بداخله هذه الابتسامة الساذجه فتظل على شفتيه .

★★★

وفى الصورة الثانية ، تلميذ موفق فى دراسته ، وينافس أترابه فى كل شئ ، كما كان ينافسهم فى المذاكرة ، وفى (الممتاز) الكبيرة التى كان الاستاذ يكتبها بالقلم الأحمر لمن يسبق زملاءه فى الاختبارات .. حتى فى صحن الجامع أصبح له مكان للصلاة وللمذاكرة أيضا .

★★★

وذلك الصبى اللاهى العابث بعد ظفره بالنجاح فى الامتحانات العام تلو العام ، فى الإجازات الصيفية ينحنى ظهره تحت شمس الصيف الحارقة لجمع دودة القطن ، ويتجمع حوله فى القيلوله جمع لا بأس به وهو يرتل القرآن ويقلد مشاهير القارئين ، هو أيضاً الذى كان يتنقل من مصنع لآخر ويعمل باليومية - إذا فرغ من الامتحانات - ليتسنى له جمع النقود لشراء الحلوى ودخول السينما والاشتراك فى الرحلات ، وكان والده يشجعه على العمل فى الأجازات بغية الاعتماد على النفس ولكنه بتاتا لم يعتمد على نفسه فى شئ مادامت

كل متطلباته الصغيرة أوامر .

★★★

هذه الصفحة تحمل أكثر من صورة !!

وصاحب الصورة الأولى ينبغى أن أعرفه - لأتجنبه - ملامحه غريبة، ملامح شيطان ، يسخر منى لكونى لم آت بما كان يأتى به أصحابى المراهقون من مظاهر الرجولة، جميعهم كانوا يتهامسون ويتباهون بالعادة السرية والمغامرات النسائية وهو يستمع إليهم صامتاً حاقداً مشدوداً ، لأنه عاجز حتى عن الكذب عليهم ، أو تأليف الروايات لهم ، هو أول من دلنى على طريق الضياع ، وأول من أمسك بين يديه بسيجارة ليصبح رجلاً فى نظر الآخرين ما دام يجرؤ على التدخين ، الذى اختلط بالمتشردين والتافهين ، وهرب من المدرسة ، وكان أول من تنكر لكل القيم يوم أصبح ذلك العربيد الذى عرف الجنس دفعة واحدة عندما تعرف على شيطانه فى مثل سنه بعد طول جدب وظمأ ، وعندما تركته وفارقته إلى غاية أخرى بعد أن عاش معها فى جنة الحرام الملتهبة

بضرام الجنس شهورا بات يمارس أقبح الرزائل ، هو نفسه الذى كان يعى ويدرك معاناة أسرته المادية ولا يأبه لها ويخترع الأكاذيب ويلفق الحكايات لكى يحصل على نقودها القليلة ويحتكرها للهوه وضياعه وللعب القمار .

★★★

أما القابع فى هذه الصورة فيخيل إلىّ أنى أعرفه - أو أنا أحب أن أعرفه - ذلك الشاب الذى كان يحب الله ولا يناقش من شئونه شيئا ، الذى أحب الناس جميعا كما كان يحب الهدوء والخضرة والجمال ، الذى أحب الشعر والموسيقى والأنغام الحالمة وأوجد بين هذا جميعه وبين السماء صلة عظيمة حينما أحب « فيروز » ، التى أحس كأنه يحبها منذ عرف الحياة ، « فيروز » التى جعلته يشعر كأنه فى واحة من الجنة ، (جنة) لا جنة لى فى السماء إلا إذا تخلصت من سماتى الباطنة ، أكثير على أن تكون لى جنة فى الأرض إلى أن أصبح جديرا بجنة السماء ؟! هذا الشاب الذى يحب « فيروز » أنا أحبه وأكرهه ! ولكن هل يمكن أن يجتمع الحب والكره ؟

كيف يتحد الضدان ؟ أهو أنا ؟! أنا أحب أن أكونه ولا أحب ! نعم ، أحب أن أكونه لكى تعود إلىّ لذة الحياة ومتعة الدنيا التى كانت ماثلة لى عندما كنت أنا هو .
ولا أحب أن أكونه لكى لا يعود على ما عاد عليه هو بعدما حالت الأقدار والأيام وائتلف الإنسان والحيوان ، واتحد لأول مرة الإنس والجن ونجحوا جميعا فى أن يفصلوا روح « فيروز » عن روحى حتى صرت أنا الذى يحب وأنا الذى يكره ! .

★★★

أنا هنا فى هذه الصورة ، كبرى الصور جميعا ، هذا الرجل أنا على ثقة من معرفتى به ، هذا الرجل فى هذه الصورة هو أنا ! الذى أصبح خبيراً فى كل شئ ، ونال ثقة كل الأحزاب والمنابر بعدما أجاد المداهنة وعرف الطريق إلى الرشوة والسلطة ، له علاقات شتى ، رجل مجتمع هو ، كالحرباء إذا تعامل مع كل الطبقات ، يعرف المفكر والتافه ، كما يعرف المثقف والجاهل .. أصدقاؤه ومعارفه على كل نوع من أنواع البشر ، تجد

فـيـهم الصـالح والطالح ، القـديس والسـافل ، العـامل والعاطل، المهـندس والطبيـب ، المحـامى والشـرطى ، و و و ، له بينهم جميعا مكانة عظمى كما له بين بنات حـواء ، آه من حـواء ومـا لهـذا الرجل عندها ، له عندها ليـال حمـراء وصفراء وخضراء ، ونهار أبيض وأسود ، وحـيـاة من كل لون ! نعم هو ذا ، ولكننى لست أدرى لماذا أفـضّل هذه الصـورة التى توجـد فى الناحـيـة الأخـرى ؟! .

★★★

وهذا الذى يولع بالاطلاع على الكتب وينهل منهـا بنهم ويجعل كل شئ يمر به يخضع ويستسلم للعـقل والمنطق ، الذى يدمع إذا سمع دعاءً طيباً ، وينزف قلبه إن رأى حمامة تذبح ، ويئن إن سمع طفلاً يبكى ، ويؤلمه الضمير إن اقترف إثماً ، أهو أنا ؟!! .

★★★

وذاك الذى يليـه ، الذى لا يزال ينكب على الورق ليكتب، ويكتب ، ويكتب ، يكتب فى كل شئ ولا يترك

شيئاً، ويخرج أفكاره المتناقضة المتضاربة تلك فى صور شــتى ، يطيب له أن يكتب عن المرأة والحب ، والرجل والجنس، والخير والشر ، ويمزج هذا فى خليط عـجيب لا هو بالشعر ولا بالقصة ولا بالرواية وكأنه استقر على نوع جـديد فى عـالم الأدب لا يعـرفـه الأخـرون من الأدباء والفـلاسـفـة ، الذى أرسل بعـضـاً من عـبـثـه على الورق بالقلم إلى الصحف والمجلات وتم نشره ، ولكنه ما يزال مقتنعا كل الاقتناع أنه لو نشر كل إنتاجه فهو لم يخلق لكى يكون كـاتبـاً أو أديبـاً بل هو شـئ أخـر ، شـئ لايزال فى حيـز المجـهول ، لكنه بالتـأكـيد شئ فى هؤلاء جميعا الذى يتكون هو منهم .

★★★

أنت أيهـا الجـامع الشـامل ، وأراك تنظر إلىّ فى خيلاء ، يحترمك الجميع ، أينما وجدت تلمح ملء عيون الناس الإجلال والاحترام ، نضر السمات ، وجه مستدير وعينان واسعتـان وقوام فارع يميل إلى النحافة ، أبيض البشرة ، أسود الشعر تمشطه فى عناية فيبدو مطيعا لا

تند منه شعرة ولا تثور ، حتى تلك الشعيرات البيض التى تسللت ومازالت تتسلل إليه يوما بعد يوم باتت مع رفاقها تجعل من رأسك ومظهرك هذا فتى جميلا بهىّ الطلعة ، ولكن أين أنت من هذا جميعه ؟ ولماذا لم تستطع فى يوم من الأيام أن تحترم نفسك ؟! ساخطة هى عليك وعلى أفعالك؟! فأى شئ يحترمه الناس فيك ؟ تلك الهيبة التى ورثتها عن المرحوم والدك! وأين أنت منه ؟ لا صلة بينك وبينه على الإطلاق إلا فى الاسم الذى تركه لك ! وماذا فعلت فى حياتك لتحمل عنه هذا الاسم الكبير ؟ وما أنت لكى تكون خلفاً لعظيم ؟ لا شئ ! هكذا منذ وجدت فى الدنيا ، أرسلك أبوك إلى المدارس بعد الكتاب ومال بك التدليل إلى التعليم المتوسط ، ثم ماذا ؟ أصبحت موظفاً ؟ ماذا فى ذلك ؟ هناك آلاف من أمثالك ، بل عشرات الآلاف لا طعم لهم ولا لون ! حاولت أن تصبح شيئاً فى عملك؟ بماذا ؟ ببكائك وندب حظك فى بداية حياتك العملية عندما أرسلتك القوى العاملة إلى هناك فى جنوب القطر ! أم

بعجزك عن تحمل مسئولية نفسك ، أو أعباء غربتك ، وشكواك لطوب الأرض كى تعود إلى بيتك ، سنوات وعدت بعدها إلى أهلك، وسنوات أخرى بعدها ، فماذا أضفت إلى حياتك؟ هيمنة زائفة فى عالم الضياع ! عالم الجنس الآخر ! أتظن أنك بهن صرت شيئاً ؟ ألم تعلم أن هيمنتك اللعينة عليهن سوف تعود عليك بآثار عكسية مريرة ؟! بل إنها عادت فعلا بكل المرارة ، أتحدى هذا الفاجر الماجن الذى بداخلك إن كان يملك المقدرة على الارتباط المقدس بإحداهن ، حتى لو كانت أضعفهن جميعاً كتلك البلهاء التى صار لها مكان بجوارك على كرسى العرش الزائف ، تلك التى استولت على عواطفك بمقدرة سحرية ، تلك البائسة التى لم ترحمها كما لم ترحم نفسك ، التى لو علمت حقيقتك- رغم سذاجتها - لكان لها معك شأن أخر ، تقول إنك تملك عزيمة قوية ، لا داعى يا عزيزى أن أذكرك بفشلك الذريع فى كل أمر جاد مر بحياتك وانهيارك التام أمامه، سوف أكتفى بما أنت عليه الآن بعد أن تركت

صـرح الرمـال الذى كـان لك بغـبـاء الآخـرين فى عـمـلك وتحـولت عنه إلى عـالم العلم ، مـالك أنت وهذا العـالم الرحب الفـسيح ، شـهـور وشهـور مضت على اقـتـحامك لهذا العالم وأنت كما أنت لا تتقدم بل تتقهقر، وها أنت قـد جـاوزت سن الكمـال من عـمـرك دون أن تعـمـل عـمـلاً واحـداً ترضى عنه ، حـتى هذا الذى تلقى به على الورق لتلطخ أبيضـه وتطلق عليـه من المسـمـيات مـا هو أسـمى من أن يسـمى به ، لو لم تكن حيـاتك التـافـهـة تلك مـا كـان ! إطمـئن فـهـو لم يدم طويلاً ؛ فـمنذ مـتى والتـفـاهة تخلق من صـاحبـهـا كـاتبـاً أو أديبـاً، حـذار يارفـيـقى أن تصدق أنك أصبحت شيئـاً لمجرد أنهم نشروا لك بعضا مما أسميته كتابة ، وإياك أن تستغل وجودك الأخير هذا فى العـاصـمـة فـيـمـا لا شـأن لك به - عـاصـمـة - أى عـاصـمـة تلك التى تنوء وتضج بما تحـمـل ؟ التى جنى عليـهـا أهلهـا ؟! التى لا تطيـق مـا بهـا من وبـاء ؟ التى ليـست فى حـاجـة إلى أمـثـالك حـتى تزيد من أعـبـائهـا وأثقـالها ، يجب أن تعلم هذا كله يا مكملى ، كمـا يجب

أن تعلم أيضاً أنك بمثل هؤلاء الذين تتكون أنت منهم ، أو يتكونون هم منك ، إنك بهم أو معهم لا تستحق الحياة .

★ **تحذيـــــر**

(... أعلم أنكم أهل فصاحة ، وبلاغه لا يباريكم فيها أحد ، كما أعلم أنكم قادرون على مقارعة الحجة بالحجة ، وأحياناً بدون حجة ! لكننى يا سادتى أحذركم من أن يقاطعنى أحد ، مهما أصاب هو ! أو اخطأت أنا ! ، وأعدكم - دام فضلكم - بأننى سوف أوجز حكايتى قدر المستطاع ، كى لا أنفرد وحدى بالكلام ! ذلك الشئ الوحيد الذى تتميزون به عن البشر أجمعين ! ..)

مثلكم جميعاً ، كنت أحلم باللحظة التى سوف أطير فيها إلى الخارج ، وبعضكم كان يعلم مدى لهفتى ، وإصرارى ، للبحث عن وسيلة ما - مهما كانت -

للوصول إلى غايتى فور تخرجى فى الجامعة ، فلا تسألونى عن الدواعى والأسباب التى تدفع الملايين من أقرانى للهجرة ؛ فكلكم أعلم بهامنى ولا داع للإحراج !.

لكن ، قد لا يعلم أحدكم ، أن رجَلاً غليظ القلب ، سيئ النية ، ممن دانت لهم الأرض ومن عليها عندنا فى بضع سنين، يحتفظ الآن فى خزائنه بشيك ، بدون رصيد ، وعلى بياض أيضا ، ممهور بخاتم - وبصمة - والدى العجوز ، مقابل ذلك المبلغ الذى بسط لى الريح ذهابا ، وسير لى الفلك إيابا .

وقبل أن تقدحوا أزناد أفكاركم ، وتطلقوا العنان لخيالكم، لتعلموا حجم رصيدى من الدولارات ، ليحقد علىّ الحاقدون ، ويتباهى بى أصدقائى المحبون ، يجب أن أصارحكم بأننى لم أمكث بالخارج أكثر من أسبوعين، ولم تحمل حقيبتى شيئا من هناك سوى منديل صغير !!.

ترى ماذا يدور الآن فى رؤوسكم من تساؤلات ؟!

وما الدهشة التى تطل من وجوهكم ؟! الحق أننى أدرى بما فى داخلكم ! وهاكم حكايتى ، ليشفق علىّ المشفقون، ويشمت بى الشامتون ، واسمحوا حضراتكم الآن، وقبل كل شئ ، أن أردعلى ما قد يتبادر فى أذهانكم لكونى لم أذكر سوى القليل عن شخصى ، أعرفكم ، أننى تعمدت اخفاء اسمى ورسمى وموطنى الأصلى، وذلك لحاجة فى نفسى ! .

★ ولنبدأ من بداية وصولى إلى بلاد الغربة

استقبلنى زميل تخرج معى فى الجامعة ، سبقنى إلى تحقيق الحلم بشهور ، شاب قوى ، جهير الصوت ، قمحى اللون، خشن الشعر ، يعمل فى أحد المطاعم منظف صحاف وموائد ، وكان زميلى ما يزال يحتفظ بشئ من عاداتنا وتقاليدنا ؛ فاستضافنى ليلة كاملة !، وتوسط لى - أيضاً - كى أحصل على وظيفة بائع جرائد ومجلات ، وعندما عبرت له عن سعادتى لوجود أبناء وطنى فى كل مكان ، وانتشارهم فى أرجاء هذه البلاد

نصحنى قائلاً :

- إعتبر أنك تعمل فى صحراء ، فلا تتعامل مع أحد منهم .

وسكت قليلاً ثم أضاف محذرا :

- ولا تعتبر أن هناك بشراً ! .

ولما استغربت نصيحته ، واستنكرتها ، قال بغضب:

- أنت حر .

★★★

لكثرة العمل ، وقلة النوم والطعام ، كان علىّ أن أرتاح ، وقد شعرت بإرهاق شديد بمرور الأيام ، لكن الكسب شجعنى على العمل المتواصل كى أسدد دين والدى ، وأعود مستورا ، وكان ربحى الكبير هو الصلة التى ربطتنى بالأوروبيين .

* معذرة ، قد فاتنى أن أذكر لكم أننى سافرت الى بلاد الفرنجة ، وأن إقامتى كانت فى واحدة من أعرق مدنهم ! ويهمنى قبل أن أنسى مرة ثانية ، أن أخبركم

أننى ممن يجيدون لغتهم بطلاقة ، لا بحكم دراستى الجامعية فحسب ، بل عن حب وبعد نظر !

ولاحظت أنهم لا يتعاملون معى بالحذر الذى يعاملون به بقية زملائى ، الذين لاحظوا هم أيضا ذلك ، ومن ثم كنت محل جدل وخلاف بينهم ، فقال بعضهم :

- إن السبب يرجع إلى التفرقة العنصرية لأن ملامحه أوربية .

واختلف معهم البعض الذى كان يرى أن إجادتى السليمة للغتهم هى الأساس ، ولكن لم يقل أحدهم شيئاً عن أن تفهمى لسلوكيات الفرنج ، واستيعابى حضارتهم هو السبب المباشر .

فى نفس اليوم الذى دارت فيه هذه المناقشة بيننا ، اكتشفت أن مبلغاً من نقودى - كنت أحتفظ به لمصروف الجيب - سرق من معطفى ، وحمدت الله لوجود بقية النقود فى مكان آمن لا يعرفه أحد ، ولم أخبر بهذه الواقعه سوى صديقى - زميل الجامعة - الذى أصر على

أن نقدم بلاغاً فى قسم البوليس ، وبعد تردد ذهبت معه، فى الطريق قال فى شماته:

– سبق وحذرتك .

قلت بتبرم :

– الحذر لا يمنع القدر !

فى قسم الشرطة تقدمنى متطوعاً للحديث عنى ، وتقديم بلاغى ؛ فنحاه مواطن فرنجى بلطف قائلاً :

– إنّ دورى يسبقك ! .

ولما كان موجودا بالقسم قبل حضورنا انتظرت راضياً ، وأومأت لصديقى الذى اشمأنط ، وراح يستمع لبلاغ الرجل الذى كان يقول :

– بالأمس طلبونى تليفونيا فى عملى لأحضر فوراً إلى المنزل لأن زوجتى تلد ، قدت سيارتى بسرعة ، واضطررت لمخالفة ثلاث من إشارات المرور وهاك الغرامة المفروضة .

نحيت صديقى جانباً ، وتقدمت لتقديم بلاغى .

ثم سمعته يتحدث مع الرجل بإنجليزية عاجزة ،

ويلومه على حضوره لتسديد الغرامة ، فى حين كان فى استطاعته ألا يحضر ، فالإشارات الإلكترونية ، والمخالفات لا تقيد ! .

ذهلت - كما ذهل الرجل - وقبل أن أبتعد تاركا إياه مسرعا نظر إلىّ فى بلاده ! .

★★★

★ من الذاكرة

فى الصغر قال لنا أستاذ الجغرافيا :

- إن مناخ بلادنا حار جاف صيفاً ، دافئ ممطر شتاءً .

واضاف المدرس فى خيلاء :

- وهذا يا أحبائى الصغار كفيل بأن يجعل الخير يعم بلادنا ، لأنه المناخ الملائم للزراعة والصناعه أيضاً .

واستطرد فى شرح الدرس الذى لم أسمع منه شيئا ، لأن زميلى المشاكس همس لى بأنه يود أن يذكّر الأستاذ بأن المطر القليل فور نزوله عندنا يحول الشوارع إلى برك من الوحل والطين لعدة أيام ، تمتد أحيانا لأسابيع ،

فيشل حركتنا تماماً !.

كنت قد لكزت زميلى ؛ فصدرت عنا شوشرة ، ضربنى على أثرها الأستاذ ، وأمرنى بالخروج من الفصل، فخرجت !.

★★★

قبل أن تهطل بشدة ، أرسلت السماء قطرات لاستطلاع الأرض ، ثم أصبح المطر غزيراً ، والثلج كثيفاً ، وغلف كل الأشياء بستارة ناصعة البياض ، تحسست معطفى وزررته ، ولم يبق فى الميدان معى سوى الأوروبيين الذين يمارسون أعمالهم، وحياتهم العادية ، فهم محصنون ضد طبيعة الجو ، بالخمور والمعاطف الثقيلة ، والمظلات الجلدية ، أما الوافدون مثلى من بلاد الصحراء ، ووهج الشمس ، فقد كان الميدان الفسيح ، يخلو منهم كلما ازدادت الأرض لمعاناً ! ، كان بعضهم يهرول فى أثر البعض صوب الأبنية حيث الدفء ، لكننى - مكابراً - علقت نجاحى فى تسديد مديونيتى ، التى يحملها كاهل أبى ، وكذا نجاحى التام فى غربتى، على

مدى تحملى للبرد ، وتذكرت أن صديقى اللدود سبق أن قال لى :

- الثلج هنا قد يجتاح كل شئ ، ورغم ذلك فهو أهون من الثلج الآخر الذى يغمر النفوس عندنا ! .

وتضاعف إصرارى على البقاء بجوار الجرائد والمجلات ، وشيئاً فشيئاً بدأت أشعر أن جسدى يتصلب، والدماء فى عروقى تجف ، ولست أدرى كيف ؟ ومتى ؟ انهارت قواى ! ، ولم أقدر على الصمود ، قفزت كالمصعوق ، وركضت كالمجنون، اقتحمت مبنى البنك المجاور ، غير عابئ بشئ ، وفى الداخل بدت دلائل القلق علىّ ، واستبدبى الخوف ، لا من نظرات موظفى البنك ، ولا لريبة العملاء ، ولا حتى لتحفز الحراس ، بل كان قلقى ، وخوفى على الجرائد التى تركتها فى الشارع تحت المظلة التى تتكفل بحمايتها من الثلج والمطر ! .

وسرعان ما توسم الجميع فىّ الأمان ، حينما تبينوا أننى متجمد ، وأنشد الدفء لا أكثر ! ، وازداد إشفاقهم علىّ، وسارعوا لنجدتى بأكثر من شراب ساخن، وظلت

أجهزة التدفئة تنفث حرارتها فى أرجاء البنك الذى أصبح منعزلاً عن صقيع الشارع ، كأن من بداخله لا يقيمون فى بلاد الضباب والثلج ، رغم أن درجة الحرارة تدنت عشر درجات تحت الصفر ، وظل خوفى على مصير الصحف يزداد حدة بمرور الوقت ، توترت أعصابى بصورة جعلت عامل البنك الذى ساهم فى إنقاذى ، ورعايتى ، يسألنى بتحفظ عما يؤرقنى، فقلت :

- لا شئ سوى قلقى على مصدر رزقى الذى يحمله الرصيف بالشارع .

وحكيت له كيف سرقت النقود من معطفى ، فقال ليطمئننى :

- يجب ألا تقلق .

وأضاف هامساً :

- إنهم كما ترى ترتعد فرائصهم من شدة البرد .

(كان يشير إلى أقرانى - بنى وطنى - الذين تمتلئ بهم صالة الجمهور الدافئة)

واستطرد :

- ولن يقدر أحدهم على مغامرة الخروج إلى الشارع

فى هذا الوقت !! .

أحسست وكأن عدداً هائلاً من السكاكين يمزق أحشائى ، وتمنيت أن تبتلعنى الأرض .

★★★

بتعثر وثقل فى النفس والقلب خرجت من مبنى البنك ، أحكمت أزرار معطفى ، توجهت يساراً صوب المظلة ، وعندما وقع بصرى عليها ولم أجد الجرائد أسفلها ! ، تجمدت مكانى للحظة ، وسرعان ما عادت إلىّ الروح حينما لمحت منديلاً صغيرا على الطوار ، بالتحديد بجوار قائم المظلة ، عليه قطع كثيرة من النقود المعدنية !.

رأيت الثلج قد غطى المدينة بغشاء شفاف رقيق ، وأصبح الضباب يحيل المرئيات إلى لون رمادى ، والحياة ذاتها بدت فى عينى رمادية داكنة ، وكان الدفء الذى يعقب الثلج ، كذلك الناس والسيارات والحياة ، وكانت الرغبة فى البكاء قد تملكتنى تماماً ، وبقى المنديل مبللاً فى يدى ، وكانت دموعى تنهمر بغزارة ، وكنت قد قررت العودة .

★★★

★ **بنو وطني**

قبل أن أعود طفت بهم جميعاً - من أعرفه ومن لا أعرفه - طلبت منهم التفكير في العودة ! وعندما كان أحدهم يسألني عن السبب ؟ لم أقل له أن بلادنا ذات خير ورقة وشفافيه ، لأنني كنت أدرك عن يقين أن هذا كلام لن يقنع الساذج منهم ، بل كنت أقول :

- يجب أن نعود كي لا نهدر كرامتنا أكثر .

أيقنت أن كلامي ثقيل عليهم ، نعتني بعضهم (بالحنبلة) وسخر مني البعض الآخر ورماني بالخيبة وعدم الفهلوة، وكالعادة ارتدى صديقي ثوب الواعظ قائلاً :

- الموت هنا أفضل من الحياة هناك ، فلا شئ أسوأ من الجوع والفقر .

خشيت على نفسي ، وأدرت ظهري يائساً ، فَعَلَتْ ضحكاتهم ، وسمعت أحدهم ينعتني بلهجة مسرحية :

- مجنون يدعي الفضيلة .

★★★

★ **وللحكاية حاشية أيضا**

حين علم الرجل الدائن لنا بعودتى من الخارج أرسل فى طلب أبى ، الذى تأخر فى العودة إلينا ، ولما خشيت أن يكون قد أصابه مكروه قلت لوالدتى وأختى :

– سأذهب لأبى وحالما نعود سنأتى بالطعام ! .

ولما قطعت الطريق، ولم يقـــابلنى ســـاورنى قلق عنيف، وعندما سألت الرجل عنه قال بصوت معدنى :

– والدك رجل طيب ، لكنه – فـيـمـا يبـدو – فـقـد عقله ، وذهب ليسلم نفسه للشرطة قبل أن يستمع لبقية كلامى ! .

وسكت قليلاً ثم أردف ببرود :

– أنصحك يا بنى أن تذهب اليه وتقنعه بأن يتنازل عن البيت مقابل الدين .

القسم الثالث

نص

* لعنة الكرنك

لعنـــة الكرنــك

إلى
« يحيى الطاهر عبد الله »

في هدأة الليل ينبعث صوت حالم :

*« التحيات لكم يا من حججتم للصعيد وتطلعتم إلى الأمجاد في الوادي السعيد »**

يشدنا الصوت المصحوب بالضوء إلى تيه معبد الكرنك بكل ما فيه من روعة وغموض ، نستشعر الرهبة في واجهة معبد سيد آلهة الفراعنة ، الذي استوى على هذه البقعة من الأرض التي ارتفعت فوق الطوفان ؛ فتهاوت إليها أسراب الطير ، وبنى عليها الأنام مدينة الإله تسبيحاً بحمده .

*« إنه إله الكون منذ اليوم الأول (آمون) الذي ما أن يتردد اسمه حتى تنحني هامات الكهنة »** .*

★★★

فى كل خطوة نتنسم رائحة « يحيى الطاهر » شهيد القصة ذى الاسم الجليل ، الذى تخفق له قلوب العديد من المبدعين ، وتتضاءل بجانبه الفراعين !.

يرسم الضوء على لوحات الصدور رسوماً روحانيه ، وتعزف الأصوات لحناً شجياً ، يهزنا ، يقتلعنا :

- أنت ، ياربيب هذا المكان ، سترى وستسمع ،ما لا قدرة للبشر على تخيله . هنا نستطيع قراءة مؤلفات « يحيى » المدهشة التى لم يكتبها ! وعندما ندخل إلى فناء المعبد سنجد فى اتجاه القلب، الأعمدة المحيطة ببيت الولادة ، هذا المكان المبارك الذى وضع فيه أحسن القصص ، التى أنجبها للخلود !

تتداخل أصوات : توت عنخ ، رمسيس ، تحتمس ، أخناتون ، وو ... تثور ثائرتهم على ذكرى الحفيد التى طغت، وحالت دون انفراد كل منهم بسرد أمجاده ، وصوت « يحيى » يعلو ويتحدى ، يهدر ويدوى :

– لو شاء أحدكم الليلة أن يرفع عقيرته بالسؤال الذى يختلج فى الصدور ؟! .

من « يحيى » ذاك ؟ لتوالى عليه الجواب من الجدران والحجرات السرية وقواعد التماثيل ؛ فالجواب محفور عليها جميعاً باللغة العربية التى لها جلال لغتكم (الهيروغيليفية) فأنا كاتب قصصى عظيم ! أنا ذلكم الفنان الذى بث فى عروق الحجر رحيق النيل الذى يغزو نبات البردى الناشئ وسط أسراب من الطيور والزواحف التى تشبه حروفكم القديمة بانطلاقها إلى الحياة وتحليقها فى سماء الشعر ، أنا الذى تركت لكم قصصاً نفاذة إلى ما وراء موت الكتابة ، فليسقط كهنوت (الكتبة) الواهمين بتآمر الصمت والتجاهل بأنهم قادرون على طمس مجدى العظيم .

« وخر سائر البشر ساجدين، ولم يملك أى منا إزاء سر آمون الغامض وروعة حصونه المتشابكة إلا أن يستشعر العجز ، ويغض الطرف شعوراً بالنضاؤل » ** .

يتوقف خيالنا ونحن ماثلون أمام روائع بهو الأعمدة التى لم تبن إلا لتكون خليقة بعظمة الفرعون الإله ، واحتفالات قدس الأقداس المهيبة ، المحظور على عامة المصريين حضورها ، فقط يتسلل البعض منهم إلى ربوة عالية في مكان قصى على مقربة من « يحيى » القابع فى مرصده ! يرقب فيما وراء الأعمدة جموع الكهنة فى زيهم التقليدى المصنوع من الكتان، والموسيقيون بثيابهم الطويلة وهم على أهبة الاستعداد ، وحاملو القرابين وقد رفعوا فوق أكتافهم العطور والزهور وغزلان الصحراء ، ويستيقظ آمون ، ويمضى الحفل الذى يقوم عليه حشد كبير من الكهنة ، وتنصب موائد الطعام والشراب، ويبارك الإله العظيم بالنبيذ ، ويكلل بمسحه بالأدهنة والزيوت وكل ما يتخلف على موائد آمون ! ويحيى الحكّاء يحكى (حكايات الأمير) للبنت « فهيمة » التى تتضور جوعاً ، ووالدها « البشارى » يتكوم بجوار حائط مهدم وقد أمسى قلبه فى حداد ، « والحداد » وامرأته يحترقان ! والأم « حزينة » تظل وحدها بلا ضوء

ولا نار ، يمضها الشعور الحاد بقسوة الحرمان والظلم ، وتقعى فى انتظار « مصطفى » الغائب ! وما من أمل ! وينحسر الضوء عن (أسكافى المودة) الذى يعانى من القهر والغبن ، ويعرف كل صغيرة وكبيرة ، ولا يبوح بما يعرف إلا أثناء معاقرة الخمر ! ، ويتهلل وجه (محجوب الشمس) فرحاً وهو يرى « *تلك الطقوس الحتمية التى تباشر لتنفرج شفتا آمون اللتان يأتمر بأمرهما كل حى، وكل جماد* » ** .

★★★

كمن مس بالسحر ندير ظهورنا للمعبد ، ننشد القرية التى استمد منها الطاهر جلاله وعنفوانه ،« الكرنك » تلك القرية الجاثية بجوار المعبد ، التى نقشت فى وجداننا وطبعت فى خيالنا مزدانة بزهرات اللوتس ، جدرانها مزخرفة برسوم ملونة لأسراب الطيور ، وأروقة مصنوعة من الخشب ، وعرش مرفوعة ، وديار عامرة بالصبايا الملاح فى أثوابهن الشفافة يترنمن بأرق الأغنيات ...

فجأة تبددت الأوهام على عتبات دور منشأة من الطوب اللبن الهش ، وهبت علينا رائحة الموت ونحن نقترب من بيت الفقيد .

بالود المشوب بالتحفظ يستقبلنا أخوه «عبدالرحمن الطاهر » ثم يدخلنا محراب « يحيى » ذى العينين الواسعتين الذى يطل علينا من جدار عال ، وإطار متهالك ؛ كإله فرعونى يهزأ بالموت والبشر الأحياء ، وفى تراخ يتدلى المصباح ، يرسل ضوءاً سقيماً ، يجاهد مخترقاً ضباب لفائفنا ، وينسكب الضوء عليلا فوق المكتب المتداعى ، و« عبد الرحمن» ذو الملامح الحادة والوجه الأسمر المنحوت فى الحزن يشرق فور استبيان هويتنا ؛ فيذوب جليد الصمت ، ونعلم أن الشقيق الأصغر لدرب الراحل عاشق ، ممتنا ، يذكرنا بمقال (النجم الذى هوى) الذى نشر فى « الأهرام » عقب الفاجعة بقلم ادريسنا الخالد ! .

نتساءل عن أثر ما ، أو مكتبة ! لتخليد ذكرى

« يحيى » بالأقصر ، أو حتى قريته الكرنك ، فيأتينا الجواب بالأسى واللوعة ؛ فاسم المرحوم مقرون بين عشيرته بالتهم التقليدية اللعينة !! ويحكى « عبد الرحمن » قصة الشاعر المعروف الذى حمل « لحم » الفقيد ، وتراثه الفنى بعد الوفاة ، وكيف اعتذر - بالانشغال الدائم - عن مجاوبة مستشرق (ألمانى) محب لأدب الطاهر ...

نتلمس بين الكلام دماً ، وتحلق الغربان فى الصدور ، نغادر الدار والأعين ذاهلة ، يستعصى الدمع عليها وهى تلقى النظرة الأخيرة على صورة الأديب الباهتة التى يوشحها وشاح الموت .

*« وخبا نجم الكرنك ، وأوشك سراج آمون أن ينطفىء »***.

★ ★ ★

بخطى كسيرة يطوفنا المضيف على الرموز الحية لقصص أخيه (طاحونة الشيخ موسى) ، (جامع عبد الله) وغيرها .. نستفسر عن صدى فيلم (الطوق

والأسورة) فيصلنا الجواب ممزوجاً بتعاريج الألم حيث يخبرنا :

- إن ليلة العرض فى سينما « الثقافة » كانت مأتماً كبيراً ! ..

غمرت الدهشة وجوهنا ، والتف حبل الحزن المضفور على عنق أخيه وهو يقول :

- كانوا يعلمون أن (حادثة الشرف) والأسماء حقيقية ، وأبقوا عليها كما هى !

ويصل إنفعاله مداه، وهو يضيف :

- والتليفزيون ، بإعادة العرض ، أشعل النار فى الهشيم ! عادت سيرة الذى كان ، دخلت كل بيت ، صارت - ثانية - على كل لسان ! .

قررت أن أتمالك ، أن لا يبدو على وجهى أى تأثر أو انفعال وأنا أقول :

- الزمان غير الزمان ! .

كمن فقد القدرة على الإمساك بخيوط الكلمات راح شقيق يحيى يذكرنا بأنه الصعيد ! .

*« وطأطأ آمون الرأس كشجرة عجوز عقمت فلم يعد لها ربيع »*** .

★★★

وكان الليل مايزال داكناً مكتئباً ، وكانت الأضواء فى (كورنيش الأقصر) قد ازدادت اصفراراً وشحوباً ، وكان لابد أن نرحل عن طيبة ، نتركها وهى ناعسة على ذراع أبيـــهـــا النيل ، بعـــد أن نلقى نظرة الوداع على مسلات حتشبسوت المتفردة ، التى تقف شامخة مترفعة عن اللغو الباطل ، كأنها سبابات مرفوعة ، تشير - رغم كل شىء - إلى إبداعـــات يحـــيى التى تأمـــر بالصمت ، كى يسمع الكون ترنيمات الطاهر بن عبد الله الكرنكى .

« ..... »** مقولات تسجيلية من الصوت والضوء فى معبدى الكرنك بالأقصر ، وفيله بأسوان .

صدر للمؤلف :

* « الأنتوبى » مجموعة قصصية دار الغد ١٩٨٩ .

تحت الطبع :

* « يوميات سبتمبر » رواية « الجزء الثانى » .
* « كسور » مجموعة قصصية .
* « محاورات أدبية » مع إدريس والخراط ومهران .
* « متابعات إبداعية » دراسات .

الفهرست

القسم الأول :

القسم الثاني :

« قصص »

القسم الثالث :

« نــص »



تليفون : ٢٥٢٢٦٨
ص . ب : ٥٧٤٠ هليوبوليس غرب
١٣ أ شارع إسلام - حمامات القبة - القاهرة

التوزيع بدولة الإمارات ودول الخليج
مكتبة الثقافة الجديدة
أبو ظبى ص . ب : ٣٥٧٠
ت : ٣٢٥٣٩٩

رقم الإيداع : ٩٩/٢٠٥٧
الترقيم الدولى : ٤-٧٩٢٦-١٩-٩٧٧